SPECIAL ISSUE
JULY 2022
https://doi.org/10.46722/hikmah.v5i4k

AL-HIKMAH
AL HIKMAH INTERNATIONAL JOURNAL OF ISLAMIC STUDIES AND HUMAN SCIENCES

# SPIRITUAL CARE AT THE TIME OF PENDEMIC AN ANALYTICAL STUDY OF EARLY MUSLIM SCHOLARS VIEWS & PRACTICE

Salah Machouche

E-ISSN : 2637-0581
alhikmah.my

**SPECIAL ISSUE FROM THE DEPARTMENT OF FUNDAMENTAL AND INTER-DISCIPLINARY STUDIES (FIDS), AHAS KIRKHS, IN COLLABORATION WITH AL-HIKMAH: INTERNATIONAL JOURNAL OF ISLAMIC STUDIES AND HUMAN SCIENCE**

Selected Papers from annual symposium on Scholarship Advancement Programme (SAP) on the 5th of August 2021.

**EDITOR-in-CHIEF**
Dr. Habeebullah Zakariyah

**GUEST EDITORS SPECIAL ISSUE**
Dr Maulana Akbar Shah

**EDITORIAL ADVISORY BOARD:**

**LOCAL MEMBERS**

Prof. Dr. Arif Ali Arif (IIUM), Associate Professor Dr. Azmil bin Hashim (UPSI), Associate Professor Hossam Elldin Elsefy (IIUM), Dr. Abdulmajid Obaid Hasan Saleh (IIUM), Dr. Muhammad Ikram Abu Hassan (IIUM), Dr. Abdelrahman Moawad Ali Tahawi (UniSHAMS), Dr. Ragab Ibrahim Ahmed Awad (UniSHAMS), Dr. Amr Mohammed Sayed Emam Sallam (UniSHAMS) and Dr. Reda Owais Hassan Serour (UniSHAMS), Malaysia.

**INTERNATIONAL MEMBERS**

Associate Professor Dr. Abdulaziz Eidhah Harbi Al-Harthy (King Saudi Arabia), Dr. Abdul Hanan Alissa (Oman), Dr. Sekou Marafa Toure (UAE), Dr. Ousmane Manzo Malam Moussa (Brunei Darussalam), Dr. Abdul Hameed Badmas Yusuf (Nigeria), Dr. Mohammed Nagdy Hamed (Egypt) and Dr. Mohamed Lamine Sylla (Thailand)

© 2022 by Al-Hikmah: International Journal of Islamic Studies and Human Sciences

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, translated, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior written permission of the publisher.

**FOREWORD**: A SPECIAL ISSUE FROM THE DEPARTMENT OF FUNDAMENTAL AND INTER-DISCIPLINARY STUDIES (FIDS), AHAS KIRKHS, IN COLLABORATION WITH AL-HIKMAH: INTERNATIONAL JOURNAL OF ISLAMIC STUDIES AND HUMAN SCIENCES

Following the directive from the AHAS Kulliyyah of IRKHS, the Department of Fundamental and Inter-Disciplinary Studies held its annual symposium on Scholarship Advancement Programme (SAP) on the 5th of August 2021. The one-day programme was an intervention to advance the development of scholarship among academics in AHAS KIRKHS. Its focus was to accelerate knowledge generation and dissemination by providing a conducive avenue for all academics to write, present, and publish their scholarly work in an academic journal. Since 2019, papers presented at the SAP symposiums have been published individually by staff at the FIDS. In 2022, FIDS has taken the initiative to publish selected papers as a special issue in collaboration with the Journal of Al-Hikmah.

This special issue contains eleven articles, nine in English and two in Arabic, which were presented at SAP 2021. This collection of SAP papers comes under the themes of Islam, Philosophy and Spiritual development. Most if not all articles selected for publication go in tandem with the scope and requirement of Al-Hikmah Journal. Among the areas touched by the authors are on Islamic religious teaching and learning activities, and Islamic movement in the region.

We hope this special issue would provide a kind of poignant magnetism that would touch the readers' interest as most of the papers highlighted the supremacy of knowledge and the significance of the role of spirituality. The concept of papers emerged from the thought that different scholars from diverse Asian countries would offer their respective experiences, historical facts and cultural heritage that would provide the highest level of satisfaction to the readers.

**Dr Maulana Akbar Shah**
Head of the Research and Publication Committee
Department of Fundamental and Inter-Disciplinary Studies,
AHAS KIRKHS,
International Islamic University Malaysia.

# أهمية العناية الروحية في تسلية المصاب في حالة الوباء
# قراءة تحليلية في تصورات العلماء المسلمين الأوائل وخبرتهم
# Spiritual Care at the Time of Pendemic
# An Analytical Study of Early Muslim Scholars Views & Practice

**Salah Machouche**
Kulliyyah Of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences
International Islamic University Malaysia
bentahar@iium.edu.my

*Article Progress*

Received: 25 July 2022
Revised: 26 July 2022
Accepted: 29 July 2022

*Corresponding Author:
Salah Machouche
Kulliyyah Of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences
bentahar@iium.edu.my

**ملخص**

يسعى هذا البحث إلى دراسة واستجلاء رؤية العلماء المسلمين الأوائل في ظاهرة الوباء وطرق مواجهتها واحتواء آثارها النفسية والاجتماعية، اعتمد البحث على قراءة استقرائية تحليلية لمؤلفات العلماء المتقدمين في تفسير ظاهرة الوباء وتصميمهم الحلول والإجراءات الوقائية لمواجهته. ولقد خلص البحث إلا أن رؤية المتقدمين للوباء كانت متنوعة وشاملة اتخذت بعير الاعتبار ثلاث زوايا أساسية وهي: الأمر الإلهي، ونوعية السلوك الإنساني وارتباطه بالله وحال البيئة الطبيعية. وبينت أن سلوك الإنسان الظاهر والباطن وعلاقته بالله ونشاطه كلها محددات أساسية في نشوء الكوارث والأوبئة فلابد من إدخالها في تدبير الحلول لمواجه الوباء.

**الكلمات المفتاحية:** الإسلام، الوباء، الطاعون، العناية الروحية.

**Abstract**

This study aims to investigate early Muslim scholars' understanding of the pandemic, as well as their efforts to dealing with, reducing, and curbing its psychological repercussions. The study employs an inductive and analytical interpretation of early Muslim texts on pandemics. The study shows that early Muslim thinkers interpret the pandemic from various perspectives including the divine decree, nature of human behaviour and his connection with God, and the natural world's circumstances.

**المقدمة**

تسببت جائحة كورونا المستجد (كوفيد ١٩) في وفاة أكثر من مليوني شخص، وحدوث شروخ كبيرة في الأنظمة الصحية والاقتصادية الدولية، فهو بحق أزمة انسانية واسعة النطاق ممتدة البؤس والمعاناة أحدثت ارتباكات حقيقة في مختلف المجالات العمرانية الحيوية من تعليم وسياسة واقتصاد وسياحة وخدمات اجتماعية، وخصوصا مناعة النسيج العمراني والعلاقات الاجتماعية والأخلاقية. وحيال هذه الظروف، هبَّت الحكومات والمنظمات والجمعيات الدولية والمحلية لخوض غمار المواجهة مع هذا الداء القاتل والحد من آثاره، كل ذلك بناء على التحليلات العلمية المتجددة والتخمينات والاستشراف ورصيد التجارب المتراكمة. وتشكّلت على غرار ذلك توازنات مالية واقتصاديات وتحالفات سياسة وعسكرية، وشيدت رؤية جديدة للتواصل والتعاون على أمل التحكم في انتشار الوباء والحد من آثاره في أقصر الآجال الممكنة لتعود الحياة إلى سيرتها الأولى. لكن بالرغم من كل تلك الجهود والمساعي البارزة، إلا أن تلك الجهود الجماعية الكثيفة والحثيثة لم تنجح كل النجاح في احتواء الوباء والقضاء عليه بالكلية، بل كشفت عن سوءات دفينة تتعلق بهشاشة النظام الأخلاقي والاقتصادي والسياسي العالمي. وهكذا دقت الأوبئة ناقوس

الخطر حول مفاهيم أساسية مثل الإنسانية والأخلاق والتنمية وما يتعلق بها من قيم ومثل مثل العدالة والأخوة والرحمة مما يدعو إلى مزيد من الدراسات النقدية والتأصيلية التي تستند إلى التصور الشمولي التكاملي لمفهوم الإنسان وطبيعة رسالته في الحياة ومقوماتها المادية والروحية على حد سواء.

ولعل أكثر من هذا كله، ما ترفعه التقارير العلمية الحديثة عن طبيعة هذا الوباء وعلاقته بحياة الانسان المستقبلية، إذ تؤكد بعض "التنبؤات العلمية" أن الفيروسات التي تسبب الوباء كـ (كوفيد-١٩) ستظل مع الانسان ولمدة طويلة، وتلوّح إلى ضرورة الاستعداد والتكيف مع الواقع الاعتيادي الجديد وما يحمله من أنماط حياتية ومعيشية وتواصلية واقتصادية جديدة. وعلى هذا يجب تهيئة المجتمعات على أحوال عمرانية جديدة ذات التصورات والأساليب والأنماط الجديدة مع المحافظة على الإجراءات الصحية والأساليب الوقائية وضمان الخدمات الاجتماعية الضرورية. ففي حوار أجرته إحدى القنوات الفضائية العربية مع الباحث أوغور شاهين الذي تمكن من تطوير أوائل اللقاحات المضادة للفيروس كورونا، ويجري إنتاجه حالياً بالتعاون مع شركة الأدوية الأمريكية العملاقة فايزر، قال شاهين: "إن العالم لن يتخلص من الفيروس كورونا.... من الواضح جدًا أن هذا الفيروس سيبقى معنا. هذه ليست مجرد مشكلة مؤقتة لعامي 2021 و2022. إنها تحدٍ للسنوات العشر القادمة"... [1].

تسعى هذه الدراسة إلى مناقشة مجموعة من المقومات والعناصر التي ينبغي مراعاتها في مقاومة الوباء والحد من آثاره بصورة أكثر فاعلية، وتسليط الضوء على عالم الانسان الروحي الذي يضمن "المناعة الروحية" الموازية للمناعة الفيزيزلزجية التي تأخذ القسط الأكبر من منهج مقاومة الوباء التي تتبناه الدول والمنظمات الصحية. لا يدعو هذا البحث إلى الاستغناء برأس المال الروحي فحسب، بل يؤكد على تطوير المناهج الأصيلة الأكثر فاعلية

[1] https://www.aa.com.tr/ar/دولي/العالم-التركي-شاهين-كورونا-سيمثل-تحديًا-للعالم-خلال-10-سنوات-مقبلة/2147483)

والبعد عن الخرافة والعفوية والمثالية، وذلك لأن الوسائل الروحية متداخلة مع أحوال العمران الخارجي، فإذا ما غابت أو غيبت انعكس ذلك سلبا على نتائج التربية والترشيد الروحي.

### 1. ظاهرة الوباء في القرآن والسنة النبوية

يمثل حدوث مظاهر الأسقام والشقاء والآلام والشدائد في العمران البشري بأسبابه ومقاصده وكيفياته المختلفة، جزءً طبيعيا في حياة الإنسان وعمرانه والتكاليف التي أسندت إليه من عبادة الله وحده وما يستلزمه ذلك من استخلاف في الأرض وعمارتها. ولعله لهذا السبب يصف القرآن المجيد وبنوع من الشمولية دقائق ظاهرة آلام الانسان وابتلاءاته الحياتية المقبل عليها لا محالة. ولغرض التعريف بمجموعة من هذه المعاني المتعددة الكامنة في هذا الابتلاءات، استخدم القرآن الكريم مفردات عدة منها: "القرح" منها كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٠)؛ و"الألم" في قوله تعالى: ﴿لَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٠٤)؛ و "المرض" في تسعة عشرة موضعا كما في قوله تعالى: وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٨٨) ؛ و"السقم" الذي تكرر مرتين كما في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (الصافات: ١٤٥)، و"الضر" كما في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (النساء: ٨٣)؛ و"النُصْب" كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

ويدل تنوع المفردات القرآنية بخصوص هذه الحالات الإنسانية على تنوع أسبابها وأعراضها ونتائجها العاجلة والآجلة.

كما أن معرفتنا الدقيقة بهذا التنوع اللغوي في القرآن يساعدنا على الاستيعاب السليم للدلالات الواقعية المستخلصة من هذه الحوادث في سياقاتها الزمانية المختلفة. وهناك

بالإضافة ثمة عرض لحالة واقعية لهذه الظاهرة وردت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٣). قد ذكر بعض المفسرين إلى أن الآية تشير إلى قوم هربوا من الطاعون طمعا في النجاة، غير أنهم لما وصلوا إلى مكان يعتقدونه أمانا أماتهم الله تعالى جميعا، ثم أحياهم بعد ذلك بطلب من النبي حزيقل، نبي من أنبياء بني إسرائيل، والذي سأل الله تعالى أن يحييهم على يديه كحجة قاطعة على قومه على وقوع الميعاد الجسماني يوم القيامة. ذكر ابن كثير رواية ابن عباس أنهم من أهل قرية تدعى "داوردان"، وكان عددهم أربعون ألفا، معتبرا القصة "عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا من الوباء طلبا لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاء الموت سريعا في آن واحد (Ibn Kathīr, 1999)".

إنه يمكن من خلال هذا التنوع البياني للقرآن استخلاص مقاصد كلية تفسر المعاني العميقة للحوادث الكبيرة التي تعترض المجتمعات الإنسانية من حين إلى حين، ولعل من بين هذه المعاني المهمة، كون الحوادث علامات وآيات تحذير تحدث الخوف الإيجابي تقود كثيرا من الناس إلى مراجعة مجرى تفكيرهم وتصحيح شئون إدارة حياتهم العامة والخاصة. إذ يرشد القرآن إلى أن هذه العوارض التي تصيب الحياة الإنسانية ليست شرا مطلقا، بل آيات تثبت للناس عظمة الخالق وحكمة خلقه واتقانه، وأيضا تحذيرات وتذكيرا بعواقب الأفعال، ولعله المعنى الكامن في قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: 4). يقول العلامة ابن عاشور بهذه المناسبة: "العلامة التي تدل على تهديدهم بالإهلاك تهديداً محسوساً بأن تظهر لهم بوارق تنذر باقتراب عذاب (Muhammad Al-Ṭāhir, 1984)".

ومن هنا نتطرق للدلالة الثانية، والمتمثلة في سنة الابتلاء وامتحان والتكريم، والتي مفادها أن كافة الأمراض والأدواء والعاهات والمصائب ليست على الإطلاق عذابا محضا باعتبار أن من بين المصائب أسباب لتحقيق سنة الابتلاء ومسالك للتمحيص، تتوج العبد بعد

صبره واحتسابه بالفرج والجزاء والتكريم. ولعلنا نستشف هذا المقصد في قصة النبي أيوب عليه السلام، كما سجل القرآن الكريم شكواه أو دعوته حسب ما ذهب إليه الفقهاء والمفسرون (Al-Qurṭubī, 2002)، وما ناله من تشريف الله تعالى وتكريمه. وفي حديث لابن أبي الدنيا من طريق أنس بن مالك (ض)، أنه دخل على عائشة (ض) هو ورجل آخر، فقال لها ذلك الرجل: يا أم المؤمنين، حدثنا عن الزلزلة؟ قال: «إذا استباحوا الزنا، وشربوا الخمر، وضربوا بالمعازف، غار الله تعالى في سمائه فقال [للأرض]: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا إلا هدمتها عليهم»، قال: يا أم المؤمنين، أعذابا لهم؟ قالت: بل موعظة ورحمة للمؤمنين، وعذابا وسخطا للكافرين. قال أنس (ض) ما سمعت حديثا بعد رسول الله ﷺ أنا أشد به فرحا مني بهذا الحديث (Ibn Ḥajar, 1986)." وفي مقابل هذه الحالة، يذكر القرآن الكريم حالات أخرى تنبئ بوقوع أنواع الرجز والعذاب والخزي على أصناف من الناس اختاروا طرق الضلالة والعصيان في أحوالهم النفسية وأساليب تفكيرهم وأنماط سلوكهم الفردي والاجتماعي.

وقد خص القرآن الكريم أيضا مجموعة من الأوضاع وحالات تكون فيه المصائب فيها بشكل عام، وخصوصا منها الكوارث الطبيعية والأمراض الفتاكة المؤلمة، قطعا من العذاب يسلطه الله تعالى جزاء وفاقا لما كسبت أيدي الناس. فالقرآن لم يكتف بالعرض التصوير للظاهرة ولكنه نبه الانسان إلى "علة الأم" لظهور كثير من المصائب التي تصيبه في هذه الدنيا، وألا وهي ظهور الفساد بأنواعه بسبب حركة الانسان ونشاطه الذي تخلى على لتباع هداية الوحي السماوي. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١). إذا فكرنا فقط في أنواع الجرائم الاجتماعية التي يرتكبها الانسان وكمّها ضد بني جنسه والأضرار التي يسببها في التوازن البيئي (الهواء والماء والتراب) واختلال التوزان الذي خلقه الله فيه ندرك جيدا أن حجم الدمار الذي يسببه الوباء أقل بكثير من الدمار الذي يسببه الانسان.

وفي هذا الإطار يتبين لنا أن ضمور "القناعات" الذاتية التي يحاول من خلالها الماديون واللادينيون إقصاء الأبعاد الروحية والأخلاقية واختزال الإنسان المعاصر في تكوينه المادي، بالرغم من عرج هذه المقاربة وتأثيرها في الاستيعاب الشمولي لوضع المجتمعات الإسلامية والدينية بشكل عام، وأيضا في صياغة الحلول الناجعة والمخارج الفاعلة في التعامل مع الأوبئة. ولقد كان العلماء المسلمون الأولون يؤكدون ويذكرون الناس بوجود العلاقة بين ما تكتسبه أيدي وما يواجهون من المصائب والبلاوي العامة. وهذا ابن القيم يرى أن من له معرفة بأحوال العالم ومبدئه، يعرف أن جميع أنواع الفساد العام والخاص، ما تسببه من الآلام والأمراض والأسقام والطواعين، والقحوط والجدوب، وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها، وسلب منافعها أو نقصانها في جوه ونباته وحيوانه وأحوال أهله حدث بسبب أعمال بني آدم ومخالفتهم(Ibn Al-Qayyim, 1986).

وأخيرا لا يمكن أن يكتمل الحديث عن الأمراض والوباء في القرآن بدون التطرق إلى الشفاء، فالإسلام أسلوب حياة ومنهاج يرشد الانسان إلى حل المشكلات التي تقف أماهم في حياته. فكما تعددت طبيعة المشكلات التي تعارض الإنسان، فكذلك ينبه القرآن إلى تعدد وسائل علاجها. فالقرآن على سبيل المثال استخدم كلمة "مخرج" في ذكر المشاكل الزوجية (الطلاق: ٢)، واستخدم كذلك "اليسر" الذي يقابل "العسر" والشدة التي يسببها المشكل (البقرة: ١٨٥)، و"الشفاء" التي ربطها بالمرض (الشعراء: ٨٠)، وكذلك "المعروف" التي تضم كثيرا من الحلول والوسائل لتحقيق اليسر والفرج. ومما ينبغي ذكره أن المرض في سياق القرآن الكريم مفهوم شامل يقصد به كافة أنواع الاضطرابات التي تمس الفطرة الإنسانية الأصلية السليمة، سواء واقع ذلك على البدن بأعراض مادية، أو على النفس ومزاجها وأحوالها بأعراض معنوية، أو عليهما معا. والقرآن في هذا الصدد هو شفاء لمختلف أنواع الاسقام، فقد بيّن العديد من العلماء المسلمين أن شفاء الذي يقدمه القرآن ليس محصورا فقط في مسائل النفس الروحية والسلوكية، بل تشمل الأسقام التي تصيب البدن. فهو

شفاء تام من جميع الأدواء القلبية والبدنية إذا أحسن المريض التداوي به، واستخدمه بالصدق والايمان، واعتقاد جازم واستوفى شروط ذلك (Ibn Al-Qayyim, 1986).

لقد أرسى القرآن الكريم مجموعة من المبادئ الأساسية والقواعد الكلية للفهم السليم للمشكلات الإنسانية ولحسن التعامل معها، بما في ذلك الجوائح والأوبئة والطواعين والأمراض، ولعل أهم تلك القواعد أن كل ما يحدث في الحياة الإنسانية بأمر الله تعالى وقدره "كل من عند الله" (النساء: ٧٨)، "الشفاء من عند الله" (الشعراء: ٨٠)"، "الإنسان مسؤول عن أفعاله" (آل عمران: ١٦٥)، وأن مشاق الحياة وصعابها بلاء إلهيٌ يطهر بها الإنسان ويرفعه في الدارين (الملك: ٢)، وأنها أدوات تمحيص لصدق الدعاوى والأحوال والسلوك (آل عمران:١٥٤)، وأن بعض تلك المصائب جزء من العذاب بسبب كسب الإنسان (الروم: ٤١)، وأن المشاق والعسر مهما ضخمت واستشرت فسيخلفه يسر وبشرى وخير (الشرح: ٥-٦).

كما بينت السنة النبوية الأسس الأولى لسلامة الحياة الإنسانية، النفسية والفيزيولوجية، والسلوكية والاجتماعية، بحيث تلعب نظم الوقاية والاستهلاك والنظافة والأطعمة والعادات الاجتماعية وعلاقاتها، الدور في دفع وقوع الأوبئة الفتاكة. وقد زودتنا السنة النبوية بتفاصيل عقدية وتدابير وقائية لازمة لدفع موجات الأوبئة. أما على صعيد التعريف بالمرض، فقد روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون، قلت: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: غدة كغدة البعير، المقيم بها كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف"، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "الفار من الطاعون كالفار من الزحف، والصابر فيه كالصابر في الزحف (Ahmad, No. 24527)". كما أرست السنة النبوية تدابير صحية وقائية مناعية لاحتواء الأوبئة والطواعين مثل مراقبة الاتصال بالمصابين بأنواع معينة من المراض كالجذام. هذا ويقوم التدبير النبوي على التزام حميتين؛ الأولى تتعلق بالنظام الغذائي والأخرى بشروط النظافة، وهي إجراءات وقائية يلتزم بها المسلم في أحوال الحياتية كلها وقاية لنفسه وللمجتمع من وقوع هذه الويلات ومراقبة الاتصال بالمرضى (Malīkah,

(2021. عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، بَعْدُ يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لاَ يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ " (Al-Bukhārī, 2002, No.5771 )؛ "إذا سمعتم بالطاعون في الأرض فلا تدخلوها..." (Al-Bukhārī, 2002, No.5728 ) ؛ وعن أَبَي هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ وَلاَ هَامَةَ وَلاَ صَفَرَ، وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ ."(Al-Bukhārī, 2002, No.5707)

بيّنت السنة النبوية المزايا الإيجابية لأنواع من المصائب، والخير الذي يحصده المسلم جراء المعاناة التي تلحق المسلم جراء حدوثها كما ورد في حديث النبي ﷺ قَالَ: "مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ (Al-Bukhārī, 2002, No.5707)". وليست كفارة الذنوب الثمرة الأولى التي يحتسبها المريض، وخصوصا عند الابتلاء بالطاعون، بل أعلى من ذلك وأرقى من مستويات تساوي أجر الشهادة في سبيل الله. فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله تعالى عنها أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونِ فَأَخْبَرَهَا ﷺ "أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ, Al-Bukhārī, ) 2002, No.5724)". وقد كان هدي النبي ﷺ اللجوء إلى الدعاء والتضرع لله تعالى، مما يمثل أولى الأولويات التي لا ينبغي أن يغفل عنها المسلم أثناء المحن والأوبئة والطواعين، فقد عَائِشَةَ (ض) أنها قَالَتْ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهْيَ وَبِيئَةٌ فَاشْتَكَى أَبُو بَكْرٍ وَاشْتَكَى بِلاَلٌ فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَكْوَى أَصْحَابِهِ قَالَ: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا وَحَوِّلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ ;(Muslim, 2006 ."Al-Bukhārī, 2002)

### 2. ظاهرة الوباء في مؤلفات المسلمين

يستغرب الباحث في وفرة أدبيات العلمية في المؤلفات الإسلامية عن موضوع الأوبئة (Ibn Ḥajar, 1986)، بحيث لا يكاد يمر عصر إلا ويشهد تأليفا بشكل من الأشكال، خصوصا بعد القرن الثاني الهجري، هذا بالرغم ممن يرى أن أن بداية التأليف حول الطاعون مع كتاب الطواعين لابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ)، ولعل سبب هذا الاهتمام العلمي الأوبئة المتكررة في العالم الإسلامي أو خارجه، لكن هذا الاهتمام الواضح يعكس من زاوية أخرى أيضا عقلية المسلمين الأوائل التأصيلية والاستكشافية والتحقيقية(Ibn Ḥajar, 1986).

لكن يبدو أن أولى بدايات التيار التأليفي في الباب متصلة بحدث عمواس الذي وقع ما بين ١٧ و١٨ هجرية، حيث أقبل الناس على الأحاديث المتعلقة بالمسألة لمعرفة الأحكام الفقهية المتعلقة بالأبعاد الصحية والوقائية وأيضا الفقهية، وما يترتب على ذلك من حرج في أداء العبادات كصلاة الجماعة وأحوال العلاقات الاجتماعية الأخرى التي تجمع الناس في مجلس واحد. فقد عقد الإمام مالك على سبيل المثال في موطئه فصلين اثنين حول الموضوع "باب ما جاء في وباء المدينة"، و"باب ما جاء في الطاعون".

وقد تميزت كثير من تلك المؤلفات بالتنوع في الطرح واختلاف زوايا المعالجة العلمية، شرعية فقهية كانت أم صحية وطبية، والتي يمكن الرجوع بها إلى مؤلفه الفيلسوف العربي الأول الكندي (ت. ٢٦٠ هـ) "في الأبخرة المصلحة للجو من الوباء"، أو والفلاسفة الآخرين ممن لهم باع في العلوم الطبية كابن سينا (ت٤٢٨هـ) "دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية"، والرازي (ت.٣١٣هـ) "الحاوي في الطب"، وغيرهم. ولعل هذا التنوع هو الذي مهَّد تشييد مناخ علمي مميز، تمكن فيه العلماء من تطوير قدرات علمية وبحثية إيجابية تبرز **الصبغة التكاملية** في مؤلفاتهم، والتي تتجاوز الحدود الضيقة التي تمليها المجالات التخصصية لمختلف شعب المعرفة المتداولة. ويتجلى هذا التكامل في الجمع بين الأسئلة الطبية والفقهية، والطبيعية والغيبية، والروحية والسلوكية، والفردية والاجتماعية كما هو الحال في (الطب

المسنون في دفع الطاعون لأبي حجلة التلمساني (ت. ٧٧٦)، عبد القادر عبد الرحمن التونسي (١٤٩٣) "كتاب الطب في تدبير المسافرين ومرض الطاعون"

ولم تعاني العقلية العلمية لعلماء المسلمين لأزمة "المقاطعات" التي تعزل شعب العلوم والمعارف ونقصي بعضها عن بعض، كما يظهر ذلك جليا من خلال عناوين رسائلهم حول الظاهرة، بل تبين حجم التنوع والتكامل الذي حاولوا من خلاله إثارة الأسئلة المناسبة من زوايا مختلفة، ما تبين ذلك مثلا رسالة "تحفة النُّجباء بأحكام الطاعون والوباء" لشمس الدين بن طولون الصالحي (ت. ٩٥٣هـ) (مفقود)، و"أوراق وفوائد في أحكام الطاعون" لأبي عبد الله محمد بن الحسن بن مسعود البناني الفاسي (ت. ١١٩٤) و "إصلاح النية في المسألة الطاعونية" لأبي عبد الله محمد بن محمد بن جعفر بن مشتمل الأسلمي البلياني (ت. ٧٦٤هـ)، (مخطوط) ، و"رسالة الشِّفاء في أدواء الوباء "لطاش كبرى زاده عصام الدين أحمد بن خليل الرومي (ت.٩٦٨هـ)، و"ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون" لمرعي الكرمي المقدسي (ت.١٠٣٣هـ) ، و"إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء" للخوجة حمدان بن عثمان الجزائري، و"جواب الوزير في حرمة امتناع الحاج عن دخول مكة عند الوباء الكبير" لعبد الحميد بن عمر نعيمي الخربوتي الرومي الحنفي (ت.١٣٢٠هـ) (مفقود)، و "راحة الأرواح في دفع عاهة الأشباح" لابن كمال باشا الرومي (ت. ٩٤٠هـ). وقد برز هذا التكامل أكثر وضوحا عند استخدام نوعين أو أكثر من المعارف العلمية في تأليف واحد كما هو الحال عند المتأخرين مثل ابن خاتمة (ت. ١٣٦٩) "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الواد"، لسان الدين الخطيب (ت.١٣٧٤)، و"مقنعة السائل عن مرض الهائل" و "ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون" لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي (ت. ١٠٣٣هـ).

غير أن المعاينة والواقعية من أبرز ميزات كثير من تلك المؤلفات والكتابات الإسلامية المسلمين، وذلك باعتبار أن بعض هؤلاء العلماء ممن ألف في الباب كانوا ممن أصابهم الوباء أنفسهم أو أهاليهم، ومن هؤلاء ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ) الذي فقد ثلاث بنات

في أحد الطواعين، وزين الدين بن الوردي (ت. ٧٤٩هـ) الذي مات في وباء انتشر في غالب العالم وفي حلب بدءًا من (٧٤٢هـ) واستمر حتى (٧٤٩هـ)، وتاج الدين السبكي (ت٧٧١هـ) الذي مات في أحد الطواعين، وصلاح الدين الصفدي (ت. ٧٦٤) صاحب التاريخ الكبير المعروف باسم "الوافي بالوفيات"، وشهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني (ت. ٧٧٦)، صاحب كتاب "الطب المسنون في دفع الطاعون"، ... وغيرهم. ولعل هذه المعاينة المباشرة زادت من شدة الاهتمام والمشاركة الفعلية في التحليل والنقاش العلمي والتأملي خصوصا وأن بعض تلك المؤلفات تحوي أجوبة عن لأسئلة النوازل، مثل رسالة الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن سليمان الجزولي المعروف بالحضيكي (ت. ١١٨٩هـ) وهي عبارة عن جواب حول ما ينبغي فعله في حال الوباء، و"أجوبة في أحكام الطاعون" لمحمد بن أحمد بن محمد الحاج الرهوني نزيل وزان (ت. ١٢٣٠هـ)، و"تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" لمحمد بن علي ابن خاتمة تلبية لأسئلة صديق سعن الطاعون الظاهر بالمرية عام ٧٤٩(Lisānuddīn, 2015). وقد بنيت هذه المناقشة الفكرية النظرية على أساس يقترب فيه من حقل المتعدد التخصصات المعاصر (Interdisciplinary field) الذي يعنى بتداخل مجالات المعرفة المختلفة. غير أن هذا التداخل يظل متميزا بسبب احتفاظه رئيسية مصادر الوحي وعلوها، كما هو الحال مع بعض المؤلفات الخاصة بالإجابة عن النوازل، ومثاله الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية، والتي تتعلق بنازلة الطاعون الذي وقع بالأندلس سنة ٨٨٦هـ، وهي أسئلة وردت من غرناطة من قبل أبي عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري المواق الغرناطي المتوفى سنة ٨٩٧هـ بعث بذلك إلى تونس لأبي عبد الله محمد بن القاسم بن أبي يحيى بن أبي الفضل بن محمد الأنصاري الرصاع التونسي المتوفى سنة ٨٩٤هـ[2]، وكذلك رسالة الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن

[2] انظر لعمق المغربي: https://al3omk.com/551067.html (شهد في: أفريل، ١٤، ٢٠٢٢)

محمد بن سليمان الجزولي المعروف بالحضيكي (ت. ١١٨٩هـ) عما يفعل في حال الوباء، وأجوبة في أحكام الطاعون لمحمد بن أحمد بن محمد الحاج الرهوني نزيل وزان (ت. ١٢٣٠هـ). ولقد قادت هذه الخصوصية حسب الخطيب إلى أمرين اثنين: "الأول بروز نقاش منهجي يتصل بمصادر المعرفة التي تمثلت في ثنائية النص والتجربة من جهة، وبتحديد مجالي الطب والشرع ووظيفة كل واحد منهما من جهة أخرى، والثاني بروز مناقشات وتطبيقات فقهية وكلامية تتأسس على خصوصية الطاعون، وتتصل بفكرة اللاهوت العملي (Mu'tazz, 2021)".

إضافة إلى ذلك، فإن ما يميز ذلك النقاش أيضا اتصافه بالانفتاح والتنوع والتداخل بين عدة من العلوم والمعرف وزوايا التفكير والتأمل. وقد قد شارك في هذا النقاش مجموع الأطباء، والفقهاء، والشعراء، والأدباء، والفلاسفة، وعلماء الكلام، والسياسيون، وهو ما جعل نوعية الأسئلة المثارة في غاية الواقعية والتنوع والعمق. وإن تفوتت قيمة الأجوبة لتلك الأسئلة في صحتها وفاعليتها، لكنها تشير في الغالب إلى التفاعل الإسلامي الحي والإيجابي مع مختلف النوازل والكوارث. وقد سعى المسلمون لوصف الطاعون والوباء من خلال اتخاذ ما تيسير من مقالة ووجه، كل حسب فنِّه وحاله، فقد جاءت مثلا مقالة المقرئ "هذا باب الادغام الكبير في اللحود..."، ومقالة صاحب الحديث "...كم من صحيح به أصبح للوساد مسندا، وعزيز أضحى في محفرة غريبا مفردا..."، ومقالة الفقيه "قد تولى الطاعون المتدلي... ولعل هذا الذي بدا فرع من تتمة المتولي..."، ومقالة الأصولي "كم مضى في ذا العام من مندوب، وكم فات فيه من مطلوب، وكم قيد الطاعون من مطلق..."، ومقالة النحوي "قد أفنى ذلك العام الماضي كل خليل، وأتى بكل حط جليل. توارت فيه من القاضي جمل، ولم يبلغ فيه أحد من الساقية أمل"، وقال عالم صرف اللغوي "وقد زلزل الناس زلزلة وزلزالا، قلقل الجلاس قلقلة وقلقالا، وصلصل أصوات الناعيات صلصلة وصلصالا..."، ومقالة البليغ "قد حصل الطاعون في العام الماضي فأورث حسرة وحصرا وحمل وقرا واسرا، وعمر قبرا وخرب قصرا"، ومقالة الفقيه "وقد آن صحيح الشكر وأن

تكون نية الطهارة من الجنابة لذنوب على ذكر، فتيقظوا من السهو، ودعوا اللعب واللغو واللهو... (Al-Suyūṭī, 1996 )"

وقد تمكنت مؤلفات المسلمين في الباب من تصوير الوباء وبسط مفاهيمه وتمييز الوباء من الطاعون، وإضافة تسميات أخرى مختلفة تضيف من دقة الوصف والتقريب[3]. لكن قبل بلوغ هذا المستوى من الوعي العلمي في إدراك كنه ظاهرة الوباء والطاعون، شاب بعض النقاش والاختلاف الاصطلاحي باعتبار المصادر المختلفة من الأحاديث النبوية والمعاينة والتجربة، والذي أثمر نتائج علمية بالغة أهمية تتمثل في الاهتمام بتاريخ الطواعين وتأثيراتها الروحية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وسعي المشتغلين الدائب في الطب بحثا عن العلاج المناسب ووسائل الوقاية من الطاعون، والذي قاد المسلمين للبحث في المصادر الإغريقية واليونانية، كما برزت الدراسات الحديثية التي ترعى الجمع والتصنيف في مرحلتها الأولى، وتقديم شروح للأحاديث الخاصة بالطاعون في المرحلة الثانية، وهكذا ساهمت في استقرار الوعي العلمي على التمييز بين "الطاعون" والوباء"، وأرست الجمع والتوفيق بين الأحاديث يوهم ظاهرها التعارض (Mu'tazz, 2021). وبعد هذا النقاش، فصل العلماء بين الطاعون والباء، فقد جاء على لسان ابن حجر في المسألة قوله: "والتحقيق أن بين الوباء والطاعون عموما وخصوصا، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعونا، وكذلك الأمراض العامة أعم من الطاعون فإنه واحد منها (Ibn Al-Qayyim, 1986)". وذكر ابن حجر ما لخصه الإمام النووي في "شرح مسلم" في كلام عياض وقال في تهذيب الأسماء واللغات "الطاعون مرض معروف، وهو بثر وورم مؤلم جدا، يخرج معه

[3] لمعرفة تفاصيل أخرى حول دلالات المصطلحي الوباء والطاعون في التراث الإسلامي مقارنة بالتراث الغربي الكلاسيكي راج المقال:

Lawrence I. Conrad, "Tāʿūn and Wabāʾ Conceptions of Plague and Pestilence in Early Islam," Journal of the Economic and Social History of the Orient, 1982, vol. 25, no. 3 (268-307)

لهيب، ويسود ما حوليه أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان القلب، والقيء، ويخرق في المراق والآباط غاليا، وفي الأيدي والأصابع وسائر الجسد (Ibn Ḥajar, 1986)".

هذا ولا تنحصر نتيجة النقاش البنَّاء فقط في تحديد اللغوي للأسقام الفتاكة، لكن مكَّن الاجتهاد الطبي على وجه الخصوص من توسيع المعرفة العلمية واستخدام المشاهدة والمنهج التجريبي في البحث والتطوير. فعلى على سبيل المثال لا الحصر، تمكن ابن خاتمة تعريفه الوباء وتحديد خصائص بدقة (Muḥsin, 2013)، وهو نفس الأمر الذي حققه الآخرين مثل يوسف بن محمد بن مسعود السرمري (ت. ٧٧٦ هـ) في كتاب "ذكر الوباء والطاعون"، والذي يعالج فيه ماهية الطاعون والوباء وهيئته وصفاته وأعراضه، وأسباب الوباء، ثم تأثير الوباء وأخطاره قبل انتقاله إلى عرض الوصفات لمواجهته.

أما التحقيق في أسباب الوباء وعلله، فقد توسع العلماء الأوائل في ذكرها وتحديدها والتفصيل فيها ليضيف ذلك إلى الثراء الفكري والعلمي، والإسهام النوعي في التعامل مع نوازل الوباء ومجابهة آثاره النفسية مع عرض العلاج وكيمياء التعافي على أسس غيبية وروحية وأخرى طبيعية مادية معا. فعلى سبيل المثال ذهب السرمري إلى ربط الوباء بما سماه بـ "فساد مزاج الفعل، وخروجه عن طبعه الذي خلق له لما يحدث فيه من الحوادث المستغربة في مثله"، وضرب لذلك مثلا عن التحول الذي يحصل في أحوال الفصول الأربعة وما يترتب عنه من فساد "أمزجة العالم" وفساد الثمار وتسبب الضرر على الانسان (Al-Sarmarī, 2005). ومع هذا التوسع الكبير، فقد حافظ العلماء على مركزية المشيئة الإلهية، والتي ي هي من المبادئ الأساسية للعقيدة الإسلام ونظرتها الكونية (Al-Sarmarī, 2005).

إن هذا العرض المختصر يشير إلى تجربة المسلمين الأوائل بخصوص البحث حول موضوع الأوبئة واستجلاء ماهيتها وطبيعتها مع استخدام وسائل مختلفة لمواجهتها، ويدل أيضا على أن تصورهم العلمي الشامل والمتكامل الأبعاد. كما تبرز مؤلفات المسلمين نمط التفكير

الجماعي وكثافة تداخله عند نزول الشدائد، واجتهاد كل فرقة علمية من خلال استثمار مخزون تخصصها المعرفي في مواجهة الوباء وتجنب مذاهب الجدل العقيم وميول الاقصاء وتهميش آراء الأخرى. إن أحد من العلماء لم يدعي أن الوباء مسألة طبيعية بحتة، ينبغي احتواؤها فقط من خلال مداخل العلوم الفلسفية أو الطبيعية، بل كانت عودة العلماء بمختلف انتماءاتهم العلمية إلى مصادر الوحي السمة البارزة المشتركة التي لا يمكن اغفالها أو تجاوزها.

### 3. مقاربات علماء المسلمين الأوائل في تحديد طبيعة الوباء وأسبابه

لقد اتسم تصور العلماء الأوائل للوباء بالشمول، مثل اعتبار العوامل المختلفة في تحديد أسباب وقوع الوباء وتفسير معناه وتأثيره في حياة الانسان. لقد تمكنت جهودهم واعتمادهم على مصادر المعرفة المختلفة مثل الوحي، والعقل، والمعاينة الحسية والتجربة إلى تحقيق نتائج مفادها أن للوباء أسباب ثلاثة يتمثل الأول منها في الطبيعة، والذي أرجعه العلماء إلى فساد الهواء كما ذكره ابن خلدون في مقدمته، وفي كتابه "النصيحة"، استند أبو عبد الله محمد بن علي اللخمي الشقوري (ت ٧٤١هـ)، صاحب كتابي: "تحقيق النبأ عن أمر الوبأ" (مفقود)، و"كتاب تحفة المتوسل وراحة المتأمل" في الطب إلى هذه الفرضية، وعقد فصلين لدفع الوباء بإصلاح الهواء (المحيط الطبيعي) وإصلاح الأبدان بالغذاء (Muḥsin, 2013). أما السبب الثاني فغيبي، ويتمثل في وخز الجن الذي ورد ذكره في الأحاديث النبوية، والثالث روحي- نفسي مستخلص من قراءة سنن العمران البشري من القرآن والسنة النبوية، يحدث بكثرة الآثام والمعاصي ومخالفة هدي الإسلام في مجالات الحياة.

وقد تميز تصورهم كذلك بالتنوع والتركيز وفق التخصصات العلمية المتداولة في زمنهم. ولهذا نلاحظ بروز اتجاهات علمية تسعى لفهم ظاهرة الوباء من جهة التخصص الذي تمليه العلوم الطبيعية والطبية، أو الفلسفية والكلامية، أو الشرعية الفقهية، أو الأدبية التي تصدر

علم التاريخ والشعر. وقد خاضت كل تلك العلوم تجارب معرفية لبيان ماهية الوباء وطبيعته ومسبباته وأبعاده وتأثيراته. ولبيان بعض هذا التنوع، نقتصر هنا على عرض وتحليل تصورين اثنين فحسب لأهميتها في صياغة مقاربات دفع الوباء والوقاية منه، يتمثلان في التصور العقائدي والطبيعي.

### i. المقاربة العقائدية

لا يمكن اعتبار معالجة العلماء لموضوع الوباء كله نظريا، بل خلاصة تجارب معاينة عن قرب، ولهذا السبب نجد في مؤلفاتهم تحديدات مختلفة للوباء وأعراضه. فقد ذكر ابن حجر العسقلاني (ت. ٨٥٣هـ) بعض تلك التوصيفات (Ibn Ḥajar, 1986)، واجتهد في عرض التصور العقائدي للوباء ومحتواه (Ibn Ḥajar, 1986)، فعنون الفصل الأول "في بيان كونه [الوباء] رجزا على من مضى" والثاني "ذكر البيان بأن الطاعون إنّما كان عذابا على الكفرة فيمن مضى، لا على المسلمين منهم، وأنه لمؤمني هذه الأمة رحمة وشهادة"، ويضاف إلى هذا أنه وخز الجن للإنسان، ودعوة النبي على قومه. وهو تصور في غالبه قراءة لآيات القرآن وعدد من الأحاديث النبوية في الموضوع. أما الإمام السيوطي فيبرز في أبياته الجانب العقائدي لأصل الطاعون لينفي من خلالها الاعتقاد الخرافي الشائع عند الحضارات القديمة، والذي يزعم علة مواقع الأفلاك. يقول السيوطي:

بحمد الله يحسنُ الابتداءُ وللمختار ينعطفُ الثناءُ
سألتَ فخذْ جوابكَ عن يقين فما أوردت عندهم هباء
فما الطاعون أفلاكًا ولا إذ مزاج ساء أو فسد الهواءُ
رسولُ الله أخبرَ أن هذا بوخزِ الجنّ يطعننَا العداءُ
يسلّطهم إلهُ الخلقِ لما بهم تَفشُو المعاصي والزناءُ
يكون شهادةً في أهل خير ورجسًا للألى بالشر باءوا (Al-Suyūṭī, 1996)

وقد سعى ابن حجر إلى تأسيس خلفية توفيقية يلتقي فيه التصور العقائدي والطبي معا. أما الفقهاء، فيبدو أن حظَّهم العلمي كان أكبر من غيرهم من الأطباء والفلاسفة، لما أفرزه

الفقه من تساؤلات عديدة عن الظاهرة من زوايا مختلفة، ومعالجات متنوعة، عقائدية كانت أو روحية، اجتماعية أو وقائية. وهي ذات الأسئلة التي ركَّزت على بالتحديد على أصل الوباء وأسبابه، وسر إصابة المسلم إذا كان الاعتقاد بانه رجزٌ على الكافرين، وكيف يمكن اعتباره شهادةً للمسلم وهو رجز؟ وإذا كان رحمة فهل يجوز الدعاء برفعه؟ وهل يجوز أن يكون الدعاء في جماعة كما هو الحال في صلاة الاستسقاء؟ وهل يجوز الفرار من البلد المصاب بالطاعون أم ينبغي الإقامة فيه؟ وما هي أعراضه من خلال ما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم (Al-Suyūṭī, 1996)؟ ولعل هذه الأسئلة الفقهية والكلامية وغيرها مما دفع محمد علي البار ليؤكد في مقدمة تحقيقه أن الكتابة حول الطاعون عند الفقهاء والمحدثين كانت أوفر مما كانت عليه عند غيرهم من الأطباء، وأن ما كتبه الرازي على سبيل المثال في كتابه الموسوعي "الحاوي في الطب" و"المنصوري" كان محدودا، وهو نفس الكلام الذي يوجه إلى غيرهم مثل علي بن سهيل بن الطبري في كتابه "فردوس الحكمة في الطب"، وابن سينا في "القانون في الطب"، وابن النفيس في "الموجز في الطب (Al-Suyūṭī, 1996)".

غير أنه في واقع الأمر، لا يمكن مطالبة المؤلفات الفقهية والحديثة والشرعية والعمرانية الأخرى الإجابة عن جميع الأسئلة المتعلقة بالوباء، وذلك باعتبار أن رعاية التخصص العلمي اللازم لدراسة الظواهر واستجلائها ومواجهة المشكلات من سنن الله تعالى الكونية المطردة. لكن بالرغم من تلك القناعة العقدية الراسخة عند المسلمين، فقد اجتهد العلماء المسلمون لمعرفة طبيعة الوباء مع الحرص على توعية الناس بسبل الوقاية والمواجهة، وهو ما أشار إليه محمد حسن في قوله: " تميزت المصنفات الفقهية بدقة التناول، وإن اتخذ بعض العلماء موقفا سلبيا من الوباء، ولم يقاومه، وهو ما نحا ببعض الدارسين إلى تفسير ذلك الصمت باستشراء ذهنية الصّبر والاستسلام لدى مجتمع عدّ الوباء رحمة والموت شهادة (Muḥsin, 2013)". وأردف حسن متسائلا: "هل اعتبر الفقهاء الوباء عقابا إلهيا وكارثة ومحنة وقدرا لا مفر منه أم أنهم دعوا إلى مقاومته والتصدي له (Muḥsin, 2013)؟.

إن هذا السؤال يقوم على افتراض التعارض بين اعتباره: "عقابا وقدرا إلهيا" والحاجة إلى

"الاتخاذ تدابير الوقاية والتصدي له"، وهو أمر غير الصحيح، لأن الإسلام، عقيدة وشريعة وأخلاقا، يتجاوز هذه الثنائية الفكرية، ليحث المسلم على القيام بشؤونه على أحسن ما يمكن بما في ذلك الحفاظ على صحته، وهذا ما دلّت عليه سيرة النبي وآثار الصحابة في الموضوع، ولعل ما ورد في قصة الخليفة عمر –رضي الله عنه– مع أبي عبدة بن الجراح خير دليل. كما لم يكتف التصور الديني الإسلامي بأداء هذا الدور فحسب، بل عزز المناعة الفكرية للذهنية المسلمون وصانها من التصورات الخرافية التي يروج لها المشتغلون بعلم التنجيم، كما كانت منتشرة لدى شعوب والحضارات الأخرى مثل البيزنطيين. وقد كانت صورة الصيانة بينة حتى عند الذين يسمحون بقسط واسع من التأويلات كالفلاسفة أمثال ابن سينا ناهيك عن المتشبعين بالعلوم الشرعية مثل ابن خلدون (Muḥsin, 2013)، فكلاها رد هذا الصنف من التفسيرات المبنية على التخمينات والمغالطات بعيدا عن العقل والموضوعية.

ثمة فكرة أساسية أخرى في التصور العقائدي الإسلامي للوباء، تتعلق بربط الجائحة بنوعية السلوك الإنساني وجوانبه الأخلاقية التي تقوم على سلامة علاقة الانسان بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بالآخرين بما في ذلك عالم الحيوان والطبيعة. يحمل هذا التصور من الإيجابية ما يجعله أقدر على إثارة التغيير الإيجابي الاجتماعي، والتأثير على الإنجازات الطبية الكبيرة التي تطمئن الإنسان وتخفف عنه الآلام والمعاناة التي يواجهها جرَّاء الوباء. وسبب ذلك أن الرؤية الطبي للعلاج تقوم على فرضية "القهر الطبيعي" للإنسان الذي ييسر له اللجوء إلى التبريرات والاستسلام عند تعقيد المشكلة، بحيث يقنع نفسه أن الوضع يفوق طاقاته المادية والمعنوية والعلمية فيما يتعلق بمقاومة الوباء في حين أن التصور العقائدي تضع معالجة أزمات الأوبئة والطواعين ابتداء في يد الانسان الذي لا ينبغي أن يفر منه ومن "إصلاح النفس والسلوك" وفق أحكام العلاقات الرئيسة الثلاث التي سبق ذكرها.

إن اللافت للانتباه أن التصور العقائدي لم يعرض مناقضته للتفسير الطبي بحال من الأحوال، ولم يسجل أبدا عرقلته للجهود أو التفسيرات الساعية لإيجاد أسباب تجريبية مادية تحفظ

البدن والمحيط معا من الوباء، لكن الملاحظ حضور وتجاور تفسيرات مختلفة باختلاف التخصصات زوايا البحث عن حلول لمواجهة ظاهرة الوباء؛ فأهل العلوم الشرعية يبحثون في النصوص والأحكام، وأهل الطب يبحثون في القرائن المادية من خلال الملاحظة والتجريب والاستنتاج، وهنا تظهر ملامح بيئة علمية متكاملة منطقها قوة السؤال العلمي، والدليل، والنتيجة العلمية المؤثرة التي في الوضع الصحي لحياة الانسان.

إنه بالرغم من هذه الإسهامات العلمية، لا يمكن إغفال مساحات تفكير ضيقة يمكن اعتبارها غريبة عن المنظومة العلمية الإسلامية، غير مؤثرة في تحديد مسار النقاش العلمي للمؤسسة العلمية الإسلامية، وهو الأمر الذي يعمل على تحقيقه بعض الباحثين المعاصرين حول مسألة الوباء، محاولين تقليص المسافات بين بعض أساسيات التصور العقائدي والتصورات الصحية والطبية و"العلمية" لبعض المسائل التي تبدوا معارضة لبعضها البعض كما هو الحال في وخز الجن. حاول هؤلاء اللجوء إلى المعاني اللغوية لكلمة "الجن" التي من ضمنها الاختفاء والتستر، ومستوى الفهم والاستيعاب المرتبط بعصر النبوة. يرى محمد علي البار على سبيل المثال في مقدمته أنه "لما كان من المستحيل أن يحدثهم الرسول ﷺ عن الميكروبات والبكتيريا، إذ أنها لم تعرف إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، كان لابد من الإشارة إلى ذلك بما تحتمله اللغة العربية (Al-Suyūṭī, 1996)". وثمة اتجاه آخر للتقارب يسعى لتوسيع مساحة التفسيرات الفقهية وإثرائها في تصوير الحالات الممكنة ضمن دلالات الأحاديث الشريفة، كما هو الحال مع الغزالي (ت. ١١١١) حين حاول تفسير مقصد الحديث في منع الناس من الفرار من أرض الوباء، لفت النظر إلى حقائق طبية حول العدوى لم تكتشف إلاّ في هذا العصر. يقول الغزالي: "إن الهواء [في البلدة المصابة بالطاعون] لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق فيصل إلى القلب والرئة فيؤثر في الباطن ولا يظهر على الظاهر إلّا بعد التأثير في الباطن (Muḥammad ʻAlī, 2009)".

نجد أيضا بعض المعاصرين ممن لا يحسن قراءة التراث الإسلامي ممن غالبا ما يلجأ إلى اصطناع الخلافات والترويج للتعارض بين الدين (النص) والعلم (العقل والتجربة)، وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة في الأسلوب الذي عرض به أحمد سعداوي الموقف السائد في المجتمع المغربي وسائر المجتمعات الإسلامية وتصوراتهم عن الوباء. بحث وقد اختار لهذا الغرض مفهوم "السلبية" و"الاستسلام" وربط التفسير الديني بالسحر، الذي يقع في الذهن تصور مقابل للعلمية والفعالية والحكمة وغيرها من المفاهيم التي تليق بسلوك الانسان في مواجهة المصائب والشدائد. يقول سعداوي:

"يتميز الموقف السائد في المجتمع المغربي وسائر المجتمعات الإسلامية بالاستسلام للطاعون على أساس أنه قضاء لا مفر منه، وقد برر هذا الموقف التفسير السحري الديني الذي يجعل الطاعون طعن الجن ليس بمقدور الانسان مواجهته، وتدعم هذا الموقف السلبي نظر لعجز الطب عن إيجاد دواء لهذا الوباء. وقد نصح الفقهاء بالاستسلام له والصبر عليه وانتظار الشهادة (Ahmad)".

### ii. المقاربة الطبية

كما أسلفنا، لم ينفصل التصور الطبي لعلماء الإسلام الأوائل عن المجالات المعرفية الأخرى كما هو حال علم الطب والطبيعية المعاصر الذين أوكلت له مهمة تفسير العلل والأوبئة. إن لعلوم الفقه والحديث والعمران أدوارا لا تقل أهمية عن غيرها من العلوم الطبية والفلسفية، فمثلا يعكس "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" للفقيه الأندلسي محمد ابن خاتمة الأنصاري المري الأندلسي (١٣٦٩هـ) مثل هذا التقارب الذي يعبر عن تكامل حقيقي بين مختلف العلوم والمعارف في مواجهة هذا النوع من النوازل. ولعل الأهم من ذلك أن مجهوداته العلمية جاءت متقاربة مع الحقائق العلمية التي أثبتها العلم المعاصر. ذكر الباحث الإسباني (M. Herrera Carranza) في مقاله (Carranza, 2020)"ابن خاتمة المريني" أنه اكتشف طريقة العدوى عبر التنفس والتلامس للطاعون Pestis، ووصف أعراض الإصابة به وعزاها إلى (نقص التبريد الرئوي للحرارة الفطرية المتولدة في

القلب والتي يحملها الدم). وهذه العملية الموصوفة تكاد تكون مشابهة لنظام نقل الأكسجين، تولّد الإصابة بهذا الوباء مخلفات سامّة داخل الجسم، مثل الجذور الحرة، مما يؤدي إلى فشل الأعضاء المتعدد (MOF)، والذي يعتبر عامل وفاة المصاب بالطاعون كما هو الحال مع الكوفيد-١٩.[4] يقول:

"تمكن ابن خاتمة من وصف الأشكال السريرية للطاعون كنتيجة لفساد مزاج القلب، مما يعني الانتشار الجسدي للحرارة الفطرية المفرطة والشاذَّة التي لا تخففها الرئة، والأمزجة الدموية المفرطة والمرضية أيضًا. نتيجة لذلك، يتم إنشاء النفايات والمخلَّفات السامَّة التي تنتج تغييرًا متسلسلًا للأعضاء الأخرى، الذي يمكن اعتباره السبب الحاسم في حدوث الوفاة، وهو تفسير فيزيولوجي مرضي -دقيق- اكتشف قبل قرون من مفهوم متلازمة الخلل الوظيفي متعدد الأعضاء المعتمد حاليا (Carranza, 2020)".

وباعتبار عدم معارضة فهم العلل المادية للعوامل الغيبية مثل تأثير الجن أو تفسيره بأنه عقاب إلهي بسبب كثرة الذنوب، فقد اتجه علماء الطب المسلمين إلى البحث عن أسباب طبيعية أخرى لتفسير ظهور الوباء وانتشاره الواسع، فطوَّروا نظرية "فساد الهواء"، وهو ما ذكره ابن خلدون في مقدمة، مؤكدين وجود العدوى. تحدَّث بعضهم عن عوامل أخرى فلكية تتعلق بتأثير حركة الكواكب في حدوث التغييرات الطبيعة المسبِّبة للوباء، كما فعل ذلك على سبيل المثال المؤرخ ابن إياس (ت. ٩٣٠ هـ) عند حديثه عن علامات فلكية من حركة النجوم والكواكب وعلاقة ذلك بطاعون ١٥١٢م، ويعوز الربط بين الظواهر الفلكية والطاعون إلى ابن سينا. وقد ذكر هذا الاقتران أيضا ابن نفيس (ت. ١٢٨٨م) حيث نسب للطاعون أسباب أرضية تتمثل في فساد يعرض لجوهر الهواء، وأسباب أخرى سماوية فلكية مثل كثرة الشهب والرجوم في آخر فصل الصيف والخريف، وهو التفسير

[4] انظر: موقع منظمة المجتمع العلمي العربي: **https://arsco.org/article-detail-1751-8-0** (شهد في: أفريل، ١٤، ٢٠٢٢م )

الذي شاركه في الطبيب الأديب لسان الدين الخطيب (ت. ٧٧٦هـ) (Mu'tazz, 2021 ) .

## 4. الأساليب الروحية لدفع الوباء عند الأوائل

نتحدث في هذا المبحث عن خلاصة الأطروحات الروحية في رؤية علماء المسلمين للوباء. فهي على خلاف غيرهم، لا تنظر إليه أنه شرٌّ مطلقٌ بل ابتلاء ومنحة. وقد سعى بعض العلماء انطلاقا من هذا التصور إلى بيان هذه الجوانب الإيجابية من خلال وسيلة تسلية الناس، واعتبارها من ضمن التدابير التي تدفع شر الوباء وآثاره القاهرة في حياة الناس. فقد ذكر السيوطي على سبيل المثال جملة من الفوائد للوباء يحدثها في المجتمع منها مثلا: "تقصير الآمال، وتحسن الأعمال، واليقظة من الغفلة، والتزود للرحلة... فهذا يوصي بأولاده، وهذا يودع إخوانه، وهذا يهيئ أشغاله، وهذا يجهز أكفانه، وهذا يصالح أعدائه، وهذا يلاطف جيرانه، وهذا يوسع إنفاقه، وهذا يحالل من خانه، وهذا يحبس أملاكه، وهذا يحرر غلمانه، وهذا يغير أخلاقه، وهذا يغير ميزانه (Al-Suyūṭī, 1996)".

ومن جانب آخر فإن تعقد الوباء قد ساهم كثيرا في صياغة الأساليب الوقائية وطرق دفعه ومجابهته، كما يظهر في محاولات العلماء الأوائل في اتخاذ الوسائل المختلفة لدفع الوباء وفق تصوراتهم لطبيعته وأضراره على حياة الانسان. فإنه يبدو أن نظرتهم الشمولية قد أفرزت أيضا وسائل متعددة لكن شاملة ومتعددة، بحيث لم تقتصر جهودهم على البحث في الأسباب المادية التي تعنى بها علوم الطبيعة والطب والأطعمة على وجه الخصوص، بل انصب اهتمامهم على حياة الإنسان الروحية والنفسية لما لها من تأثير حقيقي وكبير على العمران البشري وأحواله وفق العقيدة الدينية الإسلامية. ولقد استفاد المسلمون في ذلك من وقائع عديدة من عهد الصحابة، أرشدتهم إلى اتخاذ الوسائل المختلفة والاجتهاد في استعمالها وتطوير فعاليتها. ولعل أشهرها قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي رواها البخاري في صحيحه(Al-Bukhārī, 2002, No.5729).

ركز العلماء جهودهم لدفع الوباء بالتذكير بما ينبغي على الناس فعلُه، وذلك من خلال منابر الوعظ، ونشر المرويات، والشعر، وبذل النصيحة، والتعريف بالتجارب، والتحفيز بتحضير "مأدبة" الجزاء الوافر الذي وعده الله تعالى به المسلمين المصابين والصابرين عند المصائب، واستثمار ما جاء في السنة النبوية من البشائر. فعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، "فأخبرها النبي ﷺ أنه كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابراً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد-Al ) Bukhārī, 2002, No.5724)". وعن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه أنه قال: دخلتُ علي رسول اللَّه ﷺ وهو يوعك، فمسسته بيدي فقلت: يا رسول اللَّه: إنك توعك وعكا شديداً، فقال ﷺ: "أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك بأن لك أجرين، قال: أجل ذلك كذلك، ثم قال: ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر اللَّه ـ تعالى بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها (Al-Bukhārī, 2002, No.5648)".

**أولا: التذكير والوعظ**: إن الذي يطَّلع على المؤلفات الإسلامية يدرك بوضوح حملة التذكير والوعظ والإرشاد الهائلة والمتواصلة، لمواجهة التأثير السلبي الذي يجلبه الوباء في النفوس والأرواح. غير أن موجة التذكير لم تنصب على سبيل المقاومة فقط بل دعت إلى اتباع سنن الطهارة المادية والمعنوية ومراعاة الأخلاق الاجتماعية مثل زيارة المريض، والتقليل من تأثير الوباء النفسي المدمر إذا أخذ الأرواح وأضر بالأنفس. ولسد هذه الثغرة اعتمد توجيه التذكير عند العلماء على بيان للناس حجم الدنيا ومتاعها الحقير الذي سبَّب غفلة الناس وعصيانهم كما هو الحال مثلا في رسالة ابن أبي الحجلة (ت.١٣٧٤م)، الموسومة كتاب "رفع النقمة في صلاة النبي الرحمة"، و"سلوة الحزين في موت البنين" الذي تضمن فصلا عن "في حال الدنيا الحائل وحائطها المائل، وخيال ظلها الزائل (Muḥsin, 2013)".

وقد شمل اهتمام هؤلاء العلماء بالجانب الروحي ايضا تعبير الرؤى التي تنتقل في أوساط الناس، والتي تحمل وصفات للدعاء والتضرع وإصلاح النفس لاستجلاب عفو الله تعالى ورحمته وحفظه. ففي رواية أنه قد قدم على قاضي دمشق تقي الدين السبكي رجل من جبال الروم، فأخبره أنه لما وقع في الفناء في بلاد الروم رأى رسول الله ﷺ فشكى إليه ما نزل بالناس من الفناء فأمره ﷺ أن يقرؤوا سروة نوح ٣٣٦٠ مرة، وأن يسألوا الله أن يرفع عنهم ما هم فيه (Taqīuddīn, 1998). وقد أخبر صاحب الكتاب أنه اجتمع الناس في المساجد وفعلوا ما أمرهم، وتضرعوا إلى الله تعالى، وتابوا من ذنوبهم، وذبحوا أغناما وأبقارا للفقراء لمدة سبعة أيام، والفَّناء يتناقص كل يوم حتى زال. كما نودي الناس إلى الجامع الأموي وقرأوا صحيح البخاري لمدة ثلاث أيام وثلاث ليال، ثم خرج الناس كافة بصبيانهم إلى المصلى، وكشفوا رؤوسهم وضجوا بالدعاء، ومكثوا على ذلك ثلاث أيام، فتناقص الوباء حتى زال كلية(Taqīuddīn, 1998).

لكن التحديات التي أفرزتها ظاهرة الوباء جعلت أساليب ومناهج الذكر والوعظ غير متجانسة، فقد انفرد البعض بدعوة الناس إلى الاستمرار في نمط عيشهم العادي وعلاقاتهم وأنشطتهم رغم ما يحدثه الوباء الفتاك بالأرواح اعتقادا منهم بعدم صحة ما يقوله الأطباء بخصوص انتقال الوباء بسبب عدوى استنادا في ذلك لفهم حديث رسول الله ﷺ: "لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، ولا نوء ولا غول، ويعجبني الفأل .(Muslim, 2006 No.2220)". لكن الحديث الذي اعتمدوا عليه لا يعارض في الواقع دلالات الأحاديث الأخرى التي تؤكد على ضرورة الأخذ بالإجراءات الصحية الوقائية كالابتعاد عن "المجذوم". فقد كان قصد الرسول الله ﷺ "إبطال ما يعتقده أهل الجاهلية، من أن الأشياء تعدي بطبعها، فأخبرهم ﷺ أن هذا الشيء باطل، وأن المتصرف في الكون هو الله وحده، فقال بعض الحاضرين له ﷺ: يا رسول الله الإبل تكون في الصحراء، كأنها الغزلان، فيدخل فيها البعير الأجرب فيجربها، فقال ﷺ :"فمن أعدى الأول (Al-Bukhārī, 2002, No.5717)

" والمعنى أن الذي أنزل الجرب في الأول هو الذي أنزله في الأخرى، ثم بين لهم ﷺ أن المخالطة تكون سبباً لنقل المرض من الصحيح إلى المريض، بإذن الله تعلى".[5]

وعليه نصح السَّرمري (ت. ١٢٩٦) الناس الذين يخشون العدوى ويتجنبون زيارة المرضى وتتبع الجنائز لتخليهم عن هذه الإجراءات التي تقيده لأنها لا تفيدهم في شيء؛ فالوباء كما يقول: "سلب طفلا رضيعا وشابا غضا، وكم كسر من باب، وخرق من حجاب، وهجم من على جناب حتى أمضى (Al-Sarmarī, 2005)"، و"قاضي الأجل قد سجل وحكم وأمضى (Al-Sarmarī, 2005)". وفي المقابل يدعو إلى الجد والاجتهاد في العبادة، ويدعو: "فيا مريض الذنوب، فإن عائد الموت قد جاء ليختبر لك شحنة ويجس نبضا، فقدم أيها الهالك من مالك لحالك سلفا وقرضا (Al-Sarmarī, 2005)". واستشهد بذلك بما كان حال بعض الصحابة أثناء الوباء، مستشهدا بأبي عبيدة ابن الجراح –رضي الله عنه– لما وقع الطاعون في زمانه، وكيف كان يسأل الله أن يقسم له منه حظه، فطعن فيه ومات، وكذلك بموقف معاذ بن جبل الذي خلفه، والذي حين طلب منه الناس أن يدعوا أن يرفع الله عنهم رجز الوباء، رد قائلا : "إنه ليس برجز، ولكنه رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم، اللهم آت آل معاذ نصيبهم الأوفر من هذه الرحمة (Al-Sarmarī, 2005)".

**ثانيا: آداب النفس وعمارة القلب**

إن أنفع ما يحتاج إليه الإنسان، خصوصا في حالة المرض أو الابتلاء بالمصيبة، رياضة النفس وعمارة القلب بالمعاني الإيمانية التي تحول "المصيبة" إلى "الغنيمة" و"المشقة" إلى "يسر" و"الألم" إلى اللذة. لقد تعلم المسلمون هذه القاعدة واجتهدوا في الاعتماد عليها في مختلف ميادين الحياة. يذكر القرآن الكريم هذه القاعدة بصراحة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن

[5] الموقع الرسمي للإمام ابن باز، شهد ٣٠ جوان ٢٠٢١.
https://binbaz.org.sa/fatwas/29004/شرح-حديث-لا-عدوى-ولا-طيرة

دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (سورة الرعد: ١١). لهذا نجد أن العلماء في "الرسائل الوبائية" أولوا الأولوية لهذا النوع من "العلاج" في التدبير الشامل لدفع الوباء، ولأهمية هذا الاجراء، بادروا إلى إبرازه في مؤلفاتهم. فهذا ابن حجر في كتابه المعروف يذكر جملة من هذه الآداب التي ينبغي مراعاتها وإعانة الناس على القيام بها أثناء المصيبة، وهي سؤال الله العافية (الأعراف: ١٥٥)، والصبر على قضاء الله والرضا بما قدره تعالى، والترغيب في حسن الظن، وختم فصله ببيان فضل العيادة آداب(Ibn Ḥajar, 1986). وكذلك فعل ابن المبرد (ت.١٥٠٣)، حين ذكر أن إتيان أبواب الخير تدفع المصائب بما في ذلك الوباء، وأدرج في جملتها الصلاة، وكثرة الطهارة، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والصدقة، والصوم، والذكر والدعاء، وقراءة القرآن(Abdulhādī‘).

إن الاعتناء بهذا العلاج ثمرة طيبة لتصور المسلم للمرض وأسباب الأوبئة. فقد جاءت هذه الرؤية واضحة في تصنيف الأمراض وما يستدعيه المرض من الأدوية والعلاج. وفي هذا الصدد قسَّم ابن القيم الأمراض التي تصيب الانسان إلى قسمين: تتعلق الأولى منها بالبدن، والأخرى بالقلب، والتي تعني الجانب الروحي والنفسي من الإنسان. وهذه الأمراض لا يمكن الفصل بينها باعتبار أن شخصية الإنسان لا تقوم إلا على هيئة وكينونة واحدة موحدة. وهذا يترتب عنه وجود التأثير المتبادل والمستمر بين الجانبين، وهو الأمر الذي يفرض على الأطباء المسلمين التصور التكاملي الشامل في فهم شؤون الإنسان وصحته بالخصوص. إن هذا لا ينفي بروز تخصصات طبية علاجية تقصد مسالك مختلفة لفهم المرض وتقدير العلاج المناسب، من دون إقصاء أو تهميش الجانب الروحي وأدوار المتخصصين فيه.

ويعود علاج الأمراض القلبية عند ابن القيم أرجع إلى أهلها المؤيدين بالوحي الإلهي، وهم الرسل –سلام الله وصلاته عليهم–، فهو يعتقد أن هذا النوع من العلاج لا يتحصل عليه إلا من جهتهم وعلى أيديهم، ويقصد بذلك اتباع هديهم في العناية بالنفس الإنسانية وعلاجها من الأمراض الروحية، فلا نوافذ موازية لطريقة الرسل وهديهم في علاج النفس

البشرية (Ibn Al-Qayyim, 1986)." أمَّا ما يظنُّ من حصول صحة القلب من دون اتباعهم؛ فغلط ممن يظن ذلك، وإنما ذلك حياة نفسه البهيمية الشهوانية، وصحتها وقوتها، وحياة قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل، ومن لم يميز بين هذا وهذا، فليبكي على حياة قلبه، فإنه من الأموات، وعلى نوره، فإنه منغمس في بحار الظلمات (Ibn Al-Qayyim, 1986)". وقد أشار ابن القيم إلى قاعدة هذا العلاج الأساسية وهي عقائدية بامتياز. فالعلاج الروحي بأنواعه وأصنافه وأشكاله يبدأ بمعرفة الخالق والإيمان به والتوكل عليه، "فإنَّ صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها، وبأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ومحابّه، متجنبة لمناهيه ومساخطه، ولا صحة لها ولا حياة البتة إلا بذلك (Ibn Al-Qayyim, 1986)".

وهذا الطبيب لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي (ت.١٣٧٤هـ)، يرشد إلى الاعتناء بالجوانب الروحية وتقويتها لدفع الوباء والمصائب الأخرى التي تجتاح حياة الإنسان. لخَّص ابن خطيب محتوى وصفته الروحية في ثلاث وسائل، أوَّلها الدعاء، فقد أورد الدعاء الذي تناقله ابن حجر العسقلاني (ت. ١٤٤٩هـ) عن الإمام الزركشي (ت.١٣٩٢هـ) أن بعض السلف كان يدعو عقب صلاته "اللهم إنا نعوذ بك من عظيم البلاء في النفس والأهل والمال والولد، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، مما نخاف ونحذر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر عدد ذنوبنا حتى تغفر، اللهم كما شفعت فينا نبينا محمدا، فأمهلنا، وعمر بنا منازلنا ولا تؤاخذنا بسوء أفعالنا ولا تهلكنا لخطايانا يارب العالمين". والثاني يتعلق بكثرة الصلاة على النبي ﷺ(Muḥsin, 2013). أما الثالثة فتتمثل في ذكر الأثر الذي جاء فيه أن النبي ﷺ كان إذا أحْزنه أمرٌ فزع إلى الصلاة، وفي هذا السياق نقل ما قاله ابن أبي حجلة:

> "الصلاة يستشفي بها من عامة الأوجاع قبل استحكامها. فمن أحس ببدء الألم من الطاعون وغيره، فبادر إلى الوضوء، والصلاة وفرغ قلبه لله تعالى، وجمع همته على الله في صلاته، اندفع عنه ذلك الألم بإذن الله أو خفف، ولم يحصل من ثقله ما حصل لمن أعرض

> عن الله وعن الصلاة (Shihabuddin)" واتبع القول وذكر أن الصلاة "لها أثر عظيم في حفظ صحة البدن والقلب وقوامها، ودفع المواد الردية عنها، وما بتلي رجلان بعاهة أو أذى أو محنة أو بلية إلا وكان حظ المصلي منها أقل، وعاقبته أسلم (Muḥsin, 2013) ". وختم قوله بما قاله أبو حجلة في تأثير الصلاة في الصحة قائلا: "وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، لاسيما إذا أعطيت حقها من تكميل الطهارة ظاهرا وباطنا، فما استدفعت شرور الدارين ولا استجلبت مصالحهما بمثل الصلاة. ومن ذلك أنها صلة بالله تعالى، فعلى قدر صلة العبد بالله، يفتح عليه من خيرات أبوابها ويدفع عنه من الشرور أنيابها (Muḥsin, 2013)"

وفي هذا الاتجاه، نجد محاولة ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي (ت. ١٣٦٩) في تشخيص ما يصيب المرء من الأمراض النفسية أثناء حدوث الوباء، معتبرا "العلاج النفسي" ضمن أنواع التداوي التي يقاوم بها الوباء، إضافة إلى إصلاح الهواء، والحركة والسكون، وإصلاح النوم، والأطعمة والأشربة، والاستفراغ والاحتقان. يرى ابن خاتمة أن أصل هذا النوع من الأمراض تحدث بسبب "التعرض للمسرّات والأفراح وبسط النفس وانشراح الصدر وامتداد الآمال، فليستدع ذلك بما أمكت ذلك من الأمور المباحة ومجالسة من تَلْهَجُ النفس بحديثه وينصر الفكر إليه (Muḥsin, 2013)" ويؤكد أن علاج هذا النوع هو مجالسة القرآن، ولا جليس آنس من كتاب الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢). أما من لم يوَّفق لذلك، فيقترح عليه مطالعة كتب التاريخ وخصوصا أخبار الفكاهات ومناشدة الأشعار الغزلية وما في معناها. كما ينصح بعدم التعرض للغير، وكل ما يحزن النفس ويجلب الغم ويلهي عن ذلك بكل وجه ممكن، فإنه كما يقول"من الأسباب القوية لحلول هذا العارض، فأتعبُ الناس في هذه النازلة أرباب العقول، وأروحهم البُلة وأصحاب الفراغ، وكذلك فليتجنب ما يعود على

النفس بروع أو فزع أو غضب أو انزعاج، وبالجملة ما يحرك الباطن حركة غير معتدلة ولا مرضية، والله أعلم (Muḥsin, 2013)". يختم اين خاتمة وصفته جهده بالدعوة إلى الإنابة إلى الله عزّ وجلّ، ويقول:

> "لما كان هذا الحادث لعظم هوله وعموم حطبه، عديم النظير في مواقع الوجود ومجاري الأقدار بسبب المألوف من تقلبات الليل والنهار، وجب أن تصرف الهمة فيه إلى الله عزّ وجلّ، وترفع الرغبة إليه في دفعه، إذ لا يدفع العظيم إلا العظيم ولا يتوسل لمثل هذا الخطب الجسيم إلا الرب الكريم. فحق من لا نظير له في الهلك أن يرجع فيه إلى من لا نظير له في الملك سبحانه (Muḥsin, 2013)".

**ثالثا: المواساة والتسلية**

لم تخفى عن العلماء المسلمين أهمية المواساة والتسلية عند المصائب، خصوصا وهم يجدون في القرآن الكريم والسنة النبوية أكمل أشكال التعامل مع حالات المشقة والعناء. فقد استعمل القرآن أساليب المواساة والتسلية في مخاطبة الله تعالى رسله عليهم السلام أوقات الشدة والعسر في طريق الدعوة، وقد بلغ عدد الآيات في هذا الباب ١٧٥ آية (Zahrān, 2019). وتحمل كلمة التسلية معاني إيجابية عديدة منها "التخفيف ما في النفس من الحزن"، و"إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى النَّفْسِ وَإِبْعَادُ الضَّيْمِ عَنْهَا"، و"انكشاف الحزن" و"ترويح النفس". ويسلك القرآن الكريم في مواساة الإنسان المؤمن جملة من الأساليب منها بيان حقيقة الدنيا التي تؤول في آخر الأمر إلى الزوال، وزرع الإيمان وربط قلوب المسلم بحياة الآخرة الباقية، مع بيان وتذكير الناس بسنن الله تعالى مثل سنة الابتلاء، وغرس القيم الروحية والفضائل لتذليل العوائق وتحصيل المقاصد والسعادة والدرجات. وأما منهج القرآن في تفريج الكربات فمن خلال التذكير بنعم الله تعالى والحث على التوبة والاقلاع عن الذنوب، والأمر بالتقوى والعمل الصالح، مع التوكل على الله تعالى وإحسان الظن به، وتربية النفس على الرضا والقناعة(Sāmī Ḥusayn, 2013).

أما السنّة النبوية فقد أرشدت الناس إلى أنواع البر كلها وما يصلح لشؤونهم ، لقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "أحب الناس إلى الله أنفعُهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا أو تطرد عنه جوعا ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلى من أن أعتكف في هذا المسجد شهرا ومن كف غضبه ستر الله عورته ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل (Ibn Abi Al-Dunya). وللمواساة وسائل عديدة، لعل أهمها ما كان يقوم به جيل الصحابة من تذكير المصاب بفضل أعمال تعزز حسن الظن بالله تعالى. ففي رواية أنه اشتَكَى سَلمانُ فعادَهُ سعدٌ، فرآهُ يبكي، فقالَ لَهُ سعدٌ: ما يُبكيكَ يا أخي؟ أليسَ قد صحِبتَ رسولَ اللَّهِ ﷺ، أليسَ؟ أليسَ؟ قالَ سَلمانُ: ما أبكي واحدةً منَ اثنتَينِ، ما أبكي ضنًّا للدُّنيا، ولا كراهيةً للآخرةِ، ولَكِن رسولُ اللَّهِ ﷺ عَهِدَ إليَّ عَهْدًا، فما أراني إلَّا قد تعدَّيتُ، قالَ: وما عَهِدَ إليكَ؟ قالَ: عَهِدَ إليَّ: أنَّهُ يَكْفي أحدَكُم مثلُ زادِ الرَّاكِبِ، ولا أراني إلَّا قد تعدَّيتُ (Ibn Majah)".

ولقد أفردت بالتأليف في هذا الموضوع كتبٌ مستلقة بقصد التذكير والتحفيز والترغيب والتسلية بالتذكير الناس بمقادير الخلق وسنن الابتلاء، ترشد إلى الثبات والصبر والاحتساب والاعتبار والإنابة، مستخدمين فيها حكم شريفة ومواعظ نفسية مختارة. ومن أبرز الأمثلة ما كتبه الأديب مصطفى محمد البناني (ت. ١٨١٧) "سلوة الحزين على فقد الأحبة والبنين (Al-Bannānī, 1998)" و"تسلية أهل المصائب" لمحمد بن محمد الصالحي المنبجي الحنبلي (ت. ٧٨٥هـ) الذي ألفه بسبب الطاعون سنة ٧٧٥هـ، والذي سعى فيه إلى التعريف بالمصائب وأنواعها مقاصدها وحكمتها وحدودها وثوابها وأحكام استقبالها وتدبير أثرها على النفس والأهل. كما استخدم وسائط التسلية وتهدئة المصاب كعرض الوقائع وأمثلة المصابين، وتدابير التسلية المتاحة لكل إنسان كإجراء المقارنة مع المصابين الأكثر

إصابة، والتذكير "بالمصيبة العظمى" وهي التي تقع في الدّين. لقد ذكر على سبيل المثال ما ذكره أبو الفرج بن الجوزي عن قصة ذو القرنين في كيفية تعزية أمه قبل وفاته حين طلب منها أن تصنع الطعام للناس وتخبرهم أنه "لا يأكل من هذا الطعام من أصيب بمصيبة"، فكانت النتيجة أنه لم يأكل أحد، فأدركت الأم مغزى طلب ابنها واتعظت واستعدت لاستقبال المصيبة بالصبر والرضاء(Al-Manbajī, 1929). لقد عرض المنبجي أيضا جملة من أساليب مواساة المصاب وتسليته، أولها التذكير بما ورد في الكتاب والسنة النبوية من البشائر التي لا تحصى للمصاب، وما أعده الله تعالى أضعاف مضاعفة للصابرين والراضين رضى (Al-Manbajī, 1929). كما يذكر المصاب إلى إلى الوجه الآخر من المصيبة، حتى يتبين له منحة من الله، لأنه لولا محن الدنيا ومصائبها، لأصاب العبد أصناف من أمراض القلب من الكبر والعجب والقسوة(Al-Manbajī, 1929).

كما يذكَّر المصابُ أيضا بأن "الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها، وهو في الحقيقة يزيد في مصيبته... الجزع يشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، وغذا صبر واحتسب أخزى شيطانه وأرضى ربه، وسر صديقه، وساء عدوه، وحمل على إخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزيه، فهذا هو الثبات في الأمر الديني، قال النبي ﷺ: "اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر" فهذا هو الكمال (Al-Manbajī, 1929)".

ويبين الاطلاع على هذه الوسائل أثرها في النفس وفعاليتها، باعتبارها تخاطب عمق الفطرة الإنسانية من دون وسائط، وتضع لكل ثغرة نفسية نورا باسقا، وسدا منيعا يحفظها من الزلل ومن أنماط التفكير السلبي والسلوك المنحرف الذي يطفوا عند حالات الشدائد. وقد ظلت هذه الإجراءات الروحية والمادية التي وضعت بين أيدي الناس لدفع المصائب والتأقلم مع الأحوال الجديدة أكثر واقعية في بيان تصرفات الناس ونتائجها الفعلية كما نلمس ذلك في وصف السمري لما عليه الناس أثناء الجائحة، إذا صنفهم وفق مجموعات ثلاث، تضم الأولى من وقعت أحوالهم في مراتب الصبر والاحتساب، أو الخوف والتداوي والمبتهلين إلى

الله بالدعاء في كشف البلاء معتمدين بما ورد في الشرع من الأدلة. أما المجموعة الثانية فيمثلها قوم أشغلهم حب المال عن هذه الأحوال الروحية، فهم كما قال فيهم: "مستغرقون في جمعها، قد ألهاهم الحرص على تحصيلها عن شيء، فلا هم بكثرة الموت يتعظون، ولا من عواقب أمورهم وآخرهم يلحظون، فمثلهم كمثل دودة القز أكلت وبنت ثم سدّت على نفسها، فلما خرجت؛ خرجت عريانة على حلة أخرى، فعاشت يسيرا ثم ماتت وانتفع بما جمعت غيرها (Al-Sarmarī, 2005)". أما المجموعة الثالثة فتمثل أقواما "أعمى الله أبصارهم وبصائرهم، فلا سنة اتبعوا ولا مال جمعوا، بل انهمكوا في غيهم وتمادوا في ضلالتهم، وقد اشتغلوا بفعل المعاصي، ونسوا الأخذ بالنواهي لم يسعوا في إصلاح أبدانهم ولا حركوا في حفظ أيمانهم، "﴿إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾(الفرقان: ٤٤) (Al-Sarmarī, 2005).

## 5. دور العقيدة في تسلية المصابين

إن عقيدة الإيمان من أهم العوامل التي تحرك الإنسان، بالرغم من هيمنة الفلسفات المادية المعاصرة التي اختزلت مفهوم الانسان إلى "حيوان مستهلك"، والتي أفرزت تهميش الأبعاد الروحية في الانسان القائمة على "العقيدة الايمانية". ولم يكن هذا التحول مصدره العالم الغربي الذي تشكله نسبة عالية من غير المتدينين فحسب، بل نجد له في العالم الإسلامي أيضا من يروج له في مجال العمران البشري وتقلباته وأحوله. فعلى سبيل المثال نذكر التفاؤل الذي أبداه الخطيب في بحثه حول جائحة كوفيد، واستشرافه استبدال دور العلوم الشرعية الأخلاقي في التعامل مع الوباء بالأخلاق التطبيقية (applied ethics) النسبة، والدنيوية المنشأ التي تتجه إلى الإجابة عن الأسئلة الأخلاقية العملية المتعلقة بمصالح الناس الدنيوية من دون فأن يمتد إلى الآخرة والغيب. إن هذا النوع من الأخلاق يجاهر أصحابه علانية الابتعاد عن الأطر الدينية وأحكامها في تحديد القيمة الأخلاقية للفعل الفردي أو الجماعي. فعلى سبيل يرى (Peter Singer)، أحد أشهر الباحثين في الأخلاق

العملية، أن من أسس النظر الهامة للبحث في عالم الأخلاق التطبيقية اعتبارها لا دينية أي مستقلة تماما عن الدين(Singer). والقرآن يشير إلى هذا النوع من الانحراف تحديد حقول المعرفة الإنسانية بما في ذلك مجال الأخلاق، والذي يسوغ بحجة التزام "العلمية"، "والموضوعية" و"الحياد"، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧).

هذا ويستدل الخطيب على نتائجه ما لاحظه في النقاش السائد زمان كورونا، وما يظهره ذلك النقاش من تراجع السؤال الكلامي وتقدم السؤال الطبي والأخلاقي المهني. فالسؤال الطبي منصب على التحقيق في الفيروس المسبب للوباء وكيفية انتقاله وعوامل الوقاية منه ثم اللقاح الخاص به. بينما الثاني السؤال الأخلاقي "يتصل بتصرفات الأفراد في زمن الوباء لجهة حفظ النفوس ومن العدوى، كما يتصل بالسياسات العامة التي تتخذها الدول أثناء الوباء. قفد تم الانقال من اللهوت العملي الذي يحيل إلى أسئلة كلامية عملية (دينية وأخروية) إلى الأخلاقيات التطبيقية applied ethics التي تعالج أسئلة عملية تتصل بالإنسان ووجوده الدنيوي، وبوضع المعايير الحاكمة لأفعال الأفراد وسيايات الدول (Mu'tazz, 2021)".

لكن السؤال الذي ينبغي طرحه هو: هل تراجع السؤال الكلامي أو العقيدي يدل فعلا على حالة روحية ونفسية صحية وسليمة، أم يمثل أعراضا مرضية طارئة على المجتمع المسلم تكون أضرارها أسوء من من الدمار الذي تحدثه جائحة الكورونا في العالم اليوم؟ هنا يتضح لنا أهمية البحث عن الوظيفة العقيدة في حياة المسلم، واستكئاف مكامن تأثيرها، والحلول الواقعية الممكنة "السهلة" لأعقد المشاكل التي يواجهها المجتمع البشري في وقتنا الراهن.

لم يفرط العلماء الأوائل في استحضار مرجعية العقيدة الإسلامية عند تفسيرهم الحوادث وتوجيه أحوال الناس وبناء العمران، ولهذا كانت اصطبغت مقارباتهم، وأفكارهم وتدابيرهم في دفع الوباء بصبغة العقيدة وقواعدها. فقد استحضروا "معرفة الله تعالى وذكره" من خلال

كمال أفعاله وصفاته وأسمائه. إن تأمل صفات الله تعالى وأفعاله يبدد في ذهن المسلم قطعا كل صور الفوضى والخراب والاضطراب ومشاعر اليأس والتردد والاضطراب الذي يفرزه الوباء على النفس وعلى صعيد المجتمع، لينشأ بدل ذلك يقين القلب وسكونه واطمئنانه وليدرك المرء سنن الابتلاء وحكمته وليسعى لنيل ثمرتها من خلال الإيمان والعمل الصالح، وليتيقن أيضا أن الله تعالى هو الخالق المدبر للكون يحفظ المؤمن من بين يديه ومن خلفه، ويرحمه، ويستر عليه، ويلطف به، ويهديه، ويشفيه، ويرفعه، ويكرمه، ويغفر له، ويرزقه، ويؤَمِّنُه في كل حين وفي كل حالات العسر والشدة والنوازل والمصائب. ولقد ذكروا الناس كذلك بمعنى الايمان بقضاء الله وقدره، وهو كما يعرفه البعض" ... عبارة عن تعلق عين [علم] الله بالكائنات قبل وجودها؛ فلا يظهر في عالم الشهادة شيءٌ من الخلائق إلاّ على وقف علمه وقدره سابق، ولا يصدر من خلقه قول ولا فعل، ولا حركة ولا سكون، إلا وقد سبق في علمه وقدره كيف يكون، فأيام العبد محصورة، وأنفاسه معدودة، وخطواته مكتوبة (Aḥmad, 2015)".

إن من أحوال الايمان بالقدر السكينة الذهنية والتثبت بعد الاستلام وتفويض الأمر فيه إلى الله شهادة، ويتضمن ذلك الأعمال القلبية التي تقيه من الجزع الذي يسبب الاضطرابات النفسية الشديدة، والاضطرار إلى الفرار من الأوبئة والطواعين، وتتسبب في انتشاره في الخلق. وقد اجتهد العلماء المسلمون الأوائل في وصف وتحليل دقائق هذه الأحوال الحرجة، بل أبدعوا في تصويرها منحا ربانية لا تقدر بثمن، مما يعد قمة التوفيق النفسي في التعامل مع النوازل والطوارئ. فقد وصف السرمري على سبيل المثال المسلم الذي يستثمر إيمانه بالقضاء والقدر بهذه الكيفية "بالتاجر الحاذق" الذي اشترى نعيم الجنة وهو في باب بيته، ربح فيه السفر وقطع الطرقات وحمل السلاح ومعالجة فتح الحصون ومناهضة الأقران، ومبارزة الفرسان التي تلزم المجاهد والشهيد في سبيل الله (Al-Sarmarī, 2005).

وتمثل العقيدة الإيمانية "أم الحلول" لمختلف النوازل والمشكلات، ولهذا السبب كان الموضوع المحوري لوحي القرآن المكي بناء العقيدة الإيمانية والتوحيد في نفوس الصحابة. فجاءت

أول غذاء روحي ونفسي معنوي استقبله القلب المسلم، مما عزز لديهم المناعة الروحية اللازمة تعكس قيم أساسية مثل التقوى والاستقامة والفضيلة والحكمة والأخوة والتعاون والصبر على كل أنواع المشقات والمحن. ويتمثل استثمار العقيدة في هذا السياق في استنباط معاني الإيمان باليوم الآخر وتبسيط تطبيقاتها للناس، وتمكينهم من التعامل مع المشكلات مهما كبرت، وخصوصا في استشعار الخيوط التي تربط العقيدة بواقع الحياة والمجتمع. كما لم تقتصر جهود العلماء على توجيه انتباه الناس وضمائرهم وقلوبهم إلى فضل الآخرة فحسب، بل أسسوا حلولهم ومقارباتهم على الفهم السليم لسنن الاجتماع والعمران البشري، فذكَّروهم بسنة الابتلاء الحتمية في التاريخ الإنساني وتنوع أساليبها كما ذكر ذلك في القرآن الكريم (الإسراء: ٣٥). وعلى هذا الأساس، لا يجدر الاستنكار وقوع هذه المصائب على اختلاف أنواعها في هذه الدنيا، فهذ الأخيرة ليست إلا مرستان المصائب. فكل لذة فيها إلا وهي ممزوجة بالكدر "فكلما يظن في الدنيا أنه شراب فهو سراب، وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، وجمعها فهو للذهاب، ومن خاض الماء الغمر لم يخل من بلل، ومن دخل بين الصفين لم يخل من وجل، فالعجب كل العجب ممن يده في سلة الأفاعي كيف ينكر اللسع، وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضرر النفع (Al-Manbajī, 1929)".

كما لم يقتصر دور العقيدة في المؤلفات العلمية الإسلامية على موضوع التأثير في نفسية المصاب المسلم لأجل دفع الوباء وتخفيض آثاره، بل امتد أيضا إلى بيان دائرة التصور الخاصة بتأطير حدوث الأوبئة لكن في سياق أوسع من دوائره العالمية والبيولوجية أو البيئية، فاعتكفوا على مراجعة النصوص الشرعية، وتسليط الضوء على تسبب واستجلاب انحراف أحوال الناس وسلوكهم لهذا النوع من المصائب، وبذلك رفعوا سقف التحقيق والتحليل والتدبير، وذلك من خلال إدراج العمل الإنساني مباشرة إلى حيز التداول، والشروع في مهمة التفسير والبيان، مع الجمع واستنباط الأحكام واستنتاج التدابير العملية اللازمة. وقد تمكن العلماء من خلال العقيدة الإسلامية من اقصاء تفسيرات التنجيم والميثولوجيا المروجة لتأثير للكواكب ومواقع الأفلاك على سلوك الإنسان وأحواله، وعلى حدوث الأوبئة

وتفسيرها بما يدعونه من قرائن وأمارات. فعلى سبيل المثال، ردَّ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي (ت. ١٠٣٣هـ) على هذا التوجه مع إيراد الأدلة المختلفة على زيف ادعاءاتهم وزيغ وقائعهم وكذب مشاهداتهم، قائلا: "اعلم أيدك اللهُ أنَّ كلام المنجِّمين في الإخبار بالطاعون وغيره من الحوادث كذبٌ وبهتانٌ، وظنٌّ وحسبانٌ، ولا يجوز تصديقُهم في ذلك، والمصدق لهم أحمقٌ، وأو ذو تغفيل محقق (Al-Karmī, 2000)".

## 6. أهمية ممارسة التفكير الناقد عند حدوث الجائحة

تظهر الرسائل العلمية التي اطلعنا عليها ثراء لافت للانتباه للتفكير الناقد البناء الذي جمع بين مختلف الفئات العلمية من الفقهاء، والفلاسفة، والحكماء والأطباء، والمتكلمين، والشعراء وغيرهم. وكانت أحد سمات التفكير الناقد لديهم يقوم على منهاج بينية؛ تتجاوز حدود معرفة الناقد إلى ميادين تخصصية مختلفة لعرض فكرة أصح وأنفع أو لبطلان مقولة أو فكرة خاطئة بدليل معتبر لدى التخصصين. كما اشتهر أسلوب النقد الذاتي عند العلماء المسلمين المنتمين إلى نفس دائرة المعرفة التخصصية. نجد مثال الأول بارزا في نقد ابن الخطيب للفقهاء الذين نفوا العدوى، معتمدا ربط المسألة بالأحاديث الأخرى التي تدعو إلى الوقاية والابتعاد عن المصابين بأنواع الأمراض كالجذاذ، مستخدما أسلوب الحوار والاستفهام وحجة الأصول، مثل أن الدليل السمعي يلزم تأويله إذا عارضه الحس والمشاهدة. وفي خوضه لهذا الحوار والحجاج العلمي، يرد على بعض الفقهاء الذين أنكروا حدوث بحجة المعنى الظاهري لحديث واحد، "فإن قيل كيف نسلم دعوى العدوى، وقد ورد الشرع بنفي ذلك؟ قلنا، وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواترة. وهذه مواد البرهان (Mu'tazz, 2021)". ثمَّ أشار إلى النتيجة التي آلت إليها الأمور نتيجة الفهم الظاهري والجزئي للحديث، يقول ابن الخطيب: "والعناد في هذا الباب وارتكاب اللجاج فيه ألحم في الناس سيف الطاعون، وسلط الله عليهم من بعض

المفتين من اعترضوا بالفتيا اعتراض الأزارقة من الخوارج للناس بالسيوف، فسالت عن شبا أقلامهم من النفوس والمهج ما لا يعلمه إلا من كتب عليه الفناء بسببه. وإن كان بريء القصد من المضرة وقوفا مع ظاهر لفظ الحديث (Mu'tazz, 2021)".

أما الأسلوب الثاني، فيحرص على نقد التدابير التي تعرض على الناس لدفع الوباء. مما يبين أن نقد أساليب التعامل مع جائحة ليس وليد اليوم، بل السبق فيه للتراث النقدي الإسلامي، خصوصا فيما يقدمه من أفكار وبدائل وتوجيهات في اتخاذ أنجع وسائل دفع الوباء وتجنب الاجراءات العشوائية التي تفتقر إلى العلم والتجربة. وهو ما أشار السيوطي حين ذكر أن الناس أكثروا في إتيان الأشاء التي لا تغنيهم من ذلك استعمال مأكولات، ومخففات وحوامض، وتعليق فصوص، وغيرها مما نصحت به الكتب الطبية، كما ذهب فريق آخر من الناس إلى وضع أدعية لم يرد بها حديث ولا أثر، وابتدعوا أذكاراً من عند أنفسهم (Al-Suyūṭī, 1996).

وذكر السيوطي أيضا أنه في الطاعون الكبير الذي وقع سنة ٤٤٩هـ، شرع الناس بدفعه بشتى الوسائل بحيث "نودي في البلاد بصوم ثلاث أيام، ففعلوا، ثم وثقوا بالجامع كما يفعلون في شهر الرمضان، ثم خرجوا يوم الجمعة، سابع عشر الشهر إلى مسجد القدم، فتضرعوا إلى الله في رفع الطاعون، وخرج الناس من كل فج عميق، حتى أهل الذمة والأطفال، وانتشروا في الطرقات، وأكثروا التضرع والبكاء، ولم يزدد الأمر إلا شدّة، ولا موت إلا كثرة (Al-Suyūṭī, 1996)". ولا تزال إلى اليوم مثل هذه النماذج الإجرائية شائعة في بعض المجتمعات الإسلامية، فعلى سبيل المثال قام وزير الشؤون الاسلامية الموريتاني الداه ولد أعمر طالب بإصدار قرارا يقضي بإطلاق تلاوة للقرآن طوال الوقت باستخدام مكبرات الصوت في حملة أطلق عليها (بالقرآن نرفع البلاء) ، وذلك للمساهمة في جهود الحكومة للحد من تفشي فيروس كورونا... وأوضح القرار الوزاري أن الاستعانة بالقرآن للتبرك والتضرع لرفع البلاء، وأن القرار موجه إلى "جميع أئمة المساجد على عموم التراب

الوطني"[6]. وفي ماليزيا، دعت وزارة الشؤون الإسلامية هذه السنة (٢٠٢١) المسلمين في كافة أرجاء البلاد إلى قراء سورة يس في وقت متزامن عبر قناة التلفزيون الوطنية الثالثة بمشاركة قرَّاء معروفين لغرض دفع الوباء عن البلاد والدعاء بالرحمة والشفاء على المصابين[7].

إن اتخاذ مثل هذه الاجراءات الدينية العامة قد تثير بعض التساؤلات مثل ماذا يحدث في أذهان الناس بعد أدائهم هذه الأعمال في حالة ما إذا بقي الوباء ساريا أو ازداد تعقيد وانتشارا كما هو الحال اليوم؟ وهل تجدي هذه الإجراءات عندما يقدم المسلمون على تغيير أوضاعهم على الوجه الذي يرضي الله تعالى، خصوصا بإزالة المحرمات ومنع المجاهرة بالكبائر المقننة التي رانت على قلب المجتمع المسلم في مختلف مجالات الحياة السياسية، والتعليمية والاقتصادية والثقافية. فكيف للمسلمين أن يغيروا أحوالهم بقراءة القرآن وحده أو بالدعاء بعيدا عن التفكير في قيم وأخلاق وأحكام العمران البشري. إن الاستشفاء الروحي الإسلامي ليس ضربا من السلوك العبثي الصبياني يبتدعه الإنسان على مجرد التمني، بل وسيلة ربانية لها أعمالها وشروطها وأحكامها ونظام تزكيتها واقتناء حكمتها تتعلم كما تتعلم المعارف والعلوم الطبيعية، بل إن مجال التزكية الروحية أحوج ما يكون إلى حسن الفهم والالتزام والتنظيم المرتب والاتقان في الأداء وتحقيق الاستقامة في جميع مراحلها حتى يكون لها القبول والتأثير الإيجابي في دفع المصائب وتحسين أوضاع الناس (Al-Suyūṭī, 1996).

## خاتمة

مفاد هذه الدراسة أن تجربة المسلمين الأوائل فريدة متميزة ومتقدمة في أبواب العلم والتأليف ومعالجة ظاهرة الوباء التي اجتاحت المجتمعات الإسلامية مرَّات منذ القدم، وأن نصيبها

---

[6] المصدر: الشرق الأوسط: 11ديسمبر 2020 مـ رقم العدد: 15354
https://aawsat.com/home/article/2676051/موريتانيا-تسعى-للحد-من-الوباء-بحملة-«بالقرآن-نرفع-البلاء») شهد بالتاريخ: ١٤ شعبان ١٤٤٢.

[7] https://www.bharian.com.my/berita/nasional/2021/06/823676/bhplus

العلمي والموضوعي والتأصيلي موفق لحد بعيد. فقد توقفنا على بعض الدراسات الحديثة التي أشادت بدقة تشخيص المسلمين الأوائل لطبيعة الطاعون والوباء. ولعل أهم ميزات أعمالهم الفكرية، مرجعية الوحي (قرآن والسنة النبوية)، والتكامل المعرفي، وشمولية الرؤية والطرح، والتنوع العلمي، واستثمار أساليب متعددة في التفكير مثل التفكير النقدي، والعلمي والتجريبي، والتأملي والاستنباطي والاستقرائي. ولعل أبرز ما يميز إسهاماتهم اهتمامهم البالغ للرصيد الروحي لما له من تأثير وقدرة على جلب السكينة وإدخال السرور وإلهام الصبر وتعزيز الحكمة في التعامل مع الأوبئة. فقد أحسنوا استثمار وسائل روحية متنوعة لتوجيه الناس وتسلية المصابين، وهو ما تتجاهله غالب الرؤى والمقاربات "العلمية" في التعامل مع الجوائح اليوم، بسبب طغيان التصور المادي على فلسلفة الحياة والعلم، وتقديم منطق الربح والخسارة الاقتصادي البحت على غيره. إن الصورة الإيجابية للتجربة العلمية الإسلامية لا تعني بحال من الأحوال خلوها من الثغور والعثرات والنقائص، فقط ظهرت كما هو معروف بعض الآراء المتعارضة التي تسببت في اضطراب فهم الوباء واتخاذ إجراءاته اللازمة. إن تجربة المسلمين في التعامل مع الأوبئة لا تزال دفينة في المخطوطات كثير منها لم يخرج إلى النور، فهي بحاجة إلى البحث المكثف لاستخراجها وبسطها وتحليلها وتطويرها لتسهم في الرصيد التاريخي والحضاري، ولتكون تجربة حيَّة يمكن أن تلهمنا في صياغة مقاربات وحلول معاصرة لأحوال الأوبئة المعقدة اليوم. ينبغي على المسلمين في سعيهم لتدبير "النوازل" و"الأحوال الطارئة" والمتسارعة والتغيرات الهائلة التي تقع على المجتمع الإنساني أن يؤخذوا بزمام مبادرة تفعيل ركن العقيدة الذي يؤسس للحلول المستديمة الأخرى بتفاصيلها الجزئية، والتي تتعلق بالبيئات والقطاعات العمرانية والاجتماعية المختلفة.

## References

Al-Qur'ān al-Karīm

'Abdulhādī, Yūsof Bin Ḥasan Bin Aḥmad. Funūn Al-Manūn Fī Wabā Al-Ṭā'ūn (Makhṭūṭāt Fī Maktabat Aḥmad Al-Thālith Bi Turkiyya).

Abū 'Abdillāh, Muḥammad Al-Manbajī. 1925. Tasliyyat Ahl Al-Maṣāibi. Al-Qāhirah: Maktabat Al-Khanjī.

Aḥmad, 2015. 'Ajībah. Silk Al-Durar Fī Dhikr Al-Qaḍā Wa Al-Qadar. Taḥqīq: 'Abdulḥafīẓ Al-Baqālī Al-Ghazwānī. Al-Nāshir: Shakīr Al-Biqālī.

Al-Bannānī, Muṣṭafā Muḥammad. 1998. Silwat Al-Ḥazīn 'Alā Faqd Al-Aḥibbah Wa Al-Banīn. Taḥqīq: Sihām Ṣalān. Dimashq: Dār Sa'duddīn Li Al-Ṭibā'ah Wa Al-Nashr Wa Al-Tawzī'.

Al-Bukhārī, Muḥammad Bin Ismā'īl Abū 'Abdillārī Al-Ju'fī. 2002. Al-Jāmi' Al-Ṣaḥīḥ Al-Mukhtaṣar. Bayrūt: Dār Ibn Kathīr.

Al-Ḥāfiẓ, Abū Al-Ḥasan Muslim Bin Al-Ḥajjāj Al-Qushayrī Al-Naysābūrī. 2006. Al-Musnad Al-Ṣaḥīḥ Al-Mukhtaṣar Min Al-Sunan Binaql Al-'Adl 'An Al-'Adl Ilā Rasūlillāh ﷺ. Al-Riyāḍ: Dār Al-Ṭayyibat Li Al-Nashr Wa Al-Tawzī'.

Al-Karmī, Mar'ī Bin Yūsof. 2000. Mā Yaf'aluhu Al-Aṭibbā Wa Al-Dā'ūn Bi Daf'i Sharri Al-Ṭā'ūn. Bayrūt: Dār Al-Bashāir Al-Islāmiyyah Li Al-Ṭibā'ah Wa Al-Nashr Wa Al-Tawzī'.

Al-Manbajī, Muḥammad Bin Muḥammad Al-Ṣāliḥī. 1929. Tasliyat Ahl Al-Maṣāib. Al-Qāhirah: Maktabat Al-Khānjī.

Al-Qurṭubī, Abū 'Abdillāh Muḥammad Bin Aḥmad. 2002. Al-Jāmi' Li Aḥkām Al-Qur'ān. Taḥqīq: 'Abdullāh Bin 'Abd Al-Muhsin Al-Turkī. Bayrūt: Muassasat Al-Risālah.

Al-Sarmarī, Yūsof Bin Muḥammad Bin Mas'ūd. Dhikar Al-Wabā Wa Al-Ṭā'ūn. Ta'līq: Shawkat Bin Rafīqī Bin Shawkat. Al-Urdun: Al-Dār Al-Athariyyah. Dimashq: Dār Al-Maḥabbah.

Al-Suyūṭī, Jalāluddīn. 1996. Mā Rawāhu Al-Wā'ūn Fī Akhbār Al-Ṭā'ūn. Sharḥ Wa Taḥqīq Wa Al-Dirāsah: Muḥammad 'Alī Al-Bār. Dimashq: Dār Al-Qalam.

Ibn Al-Qayyim, Al-Jawziyyah. 1986. Zād Al-Ma'ād Fī Hady Khayr Al-'Ibād. Muassasat Al-Risālah. Taḥqīq: Shu'ayb Al-Arnaūṭ - 'Abdulqādir Al-Arnaūṭ - Maktabat Al-Manār Al-Islāmiyyah - Bayrūt - Al-Kuwayt.

Ibn Ḥajar, Al-'Asqalānī. 1986. Badhl Al-Mā'ūn Fī Faḍl Al-Ṭā'ūn. Taḥqīq: Aḥmad 'Iṣām 'Abdulqādir Al-Kātib. Al-Riyāḍ: Dār Al-'Āṣimah.

Ibn Kathīr, Abū Al-Fidā Ismā'īl. 1999. Tafsīr Al-Qur'ān Al-'Aẓīm. Taḥqīq: Sāmī Bin Muḥammad Al-Salāmah. Al-Riyāḍ: Dār Al-Ṭayyibat Li Al-Nashr Wa Al-Tawzī'.

Lisānuddīn, Al-Khaṭībī. 2015. Maqālat Muqni'ah Al-Sā'il 'Ammā Al-Maraḍ Al-Hāil. Taḥqīq: Ḥayāt Qārah. Al-Ribāṭ: Maṭba'at Al-Karāmah. Manshūrāt Dār Al-Amān.

Malīkah, Zayd. 2021. Athar Al-Hady Al-Nabawī Fī Al-Ta'āmul Ma'a Jāiḥat Kurūnā Kūfīd- 19 Fī Ḍaw' Al-Sunnah Al-Nabawiyyah. (Majallat Ṭibnah Li Al-Dirāsāt Al-'Ilmiyyah Al-Akādimiyyah (Al-Mujallad 4. Al-'Adad 1).

Muḥammad 'Alī, Al-Bār. 2009. Al-'Adwā Bayn Al-Ṭibb Wa Ḥadīth Al-Muṣṭafā. Dār Al-Fatḥ Li Al-Dirāsāt Wa Al-Nashr.

Muhammad Al-Ṭāhir, Ibn 'Āshūr. 1984. Al-Taḥrīr Wa Al-Tanwīr. Tūnis: Dār Al-Tūnisiyyah Li Al-Nashr.

Muḥsin, Ḥasan. 2013. Thalāth Rasāil Andalūsiyyah Fī Al-Ṭā'ūn Al-Jārif. Taḥqīq Wa Dirāsat: Muḥammad Ḥasan. Al-Majma' Al-Tūnisī Li Al-'Ulūm Wa Al-Adab Wa Al-Funūna. Bayt Al-Ḥikmah.

Mu'tazz, Al-Khaṭīb. 2021. Al-Ṭā'ūn Wa Al-Wabā: Min Al-Lāhūt Al-'Amalī Ilā Al-Akhlāqiyāt Al-Taṭbīqīyyah (Majallat Tabayyun. Al-'Adad 35\9. Al-Shita. (79- 112).

Sāmī Ḥusayn, Abū Wardah. 2013. Al-Manhaj Al-Qur'ānī Fī Al-Muwāsāh Wa Tafrīj Al-Kurubāt: Dirāsat Mawḍū'iyyah (Risālat Mājistīr. Al-Jāmi'at Al-Islāmiyyah. Ghazzah.

Taqīuddīn, Al-Muqrīzī. 1998. Al-Sulūk Li Ma'rifat Duwal Al-Mulūk. Taḥqīq: Muḥammad 'Abdulqādir 'Aṭā. Bayrūt: Dār Al-Kutub Al-'Ilmiyyah.

Zahrān, Zahrān; Muḥsin Al-Khālidī. 2019. Tasliyyat Al-Anbiyā Wa Al-Awliyā: Dirāsat Qur'āniyyah (Majallat Jāmi'at Al-Najāḥ Li Al-Abḥāth (Al-'Ulūm Al-Insāniyyah) Al-Mujallad 33(9).

M. Herrera Carranza "A propósito de pandemias: Ibn Jatima de Almeríaanticipa el concepto fisiopatológico de fallomultiorgánico en el siglo XIV" (On pandemics: Ibn Jatima de Almería anticipates the pathophysiological concept of multi-organ failure in the 14th century) (Medecina intensive Journal, 2020).

Lawrence I. Conrad, "Tāʿūn and Wabāʾ Conceptions of Plague and Pestilence in Early Islam," Journal of the Economic and Social History of the Orient, 1982, vol. 25, no. 3 (268-307)

https://www.newsweek.com/prophet-prayer-muhammad-covid-19-coronavirus-1492798

https://www.bharian.com.my/berita/nasional/2021/06/823676/bhplus

https://al3omk.com/551067.html (العمق المغربي)

https://aawsat.com/home/article/2676051/موريتانيا-تسعى-للحد-من-الوباء-بحملة-«بالقرآن-نرفع-البلاء» شهد بالتاريخ: ١٤ شعبان ١٤٤٢.

https://arsco.org/article-detail-1751-8-0 (موقع منظمة المجتمع العلمي العربي:)

https://www.aa.com.tr/ar/دولي/العالم-التركي-شاهين-كورونا-سيمثل-تحديًا-للعالم-خلال-10-سنوات-مقبلة/2147483